الأفاعي تغير جلودها ... فقط

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى.

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت. شارع سوريا. بناية صمدي وصالحة
هاتف ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب ٧٤٦٠. برقياً: بيوسران

obeikandl.com

الأفاعي تغيّر جلودها ... فقط

تأليف
أحمد البدوي

مؤسسة الرسالة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

عن سعيد بن زيد رضي اللّه عنهما قال: سمعت رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم يقول:

«من قُتل دون ماله فهو شهيد..

ومن قُتل دون دمه فهو شهيد..

ومن قُتل دون دينه فهو شيهد..

ومن قُتل دون أهله فهو شهيد»

(حديث حسن صحيح)

obeikandi.com

obeikandl.com

ذبلت شمس ذلك النهار. وراحت ضراوتها تخبو مبقية أشعة شاحبة تنسحب هي الأخرىٰ بكسل. وربما بقرف عن القرية الكبيرة..

وبدت الطبيعة وكأنها تشارك الشمس حالة غثيان مكتوم من مشهد أهل القرية وقد اجتمعوا في ساحتها يهزجون ويتصايحون مغنين، وأيدي النساء متشابكة بأكف الرجال فى رقصة محمومة، وكأن الجميع مصرين علىٰ استفراغ كل طاقاتهم بحركاتهم الهذيانية، وقد راحت الفتيات تجاري الحركات المجنونة لرجال طوحت بهم الخمرة...

وعلىٰ طرف الساحة المحاطة بشبه سوار من البيوت الحجرية ومجموعات من أشجار صلبة متعالية. كوّمت كميات من الطعام وفاكهة الحقول والكثير من الخمرة...

الاشجار الصلبة المتعالية بدت ساكنة ترقب في مهابة حمى القوم، مشفقة ربما.. علىٰ أيام خلت كان للفرحة فيها معنىٰ لذيذ مبهج...

الاشجار الصلبة الساكنة في مهابة أتراها مشفقة!.. مؤنبة!.. أم غاضبة؟!.. وتلك الحجارة البيضاء الصلدة.. صامتة كشهود وقورين!.. أم ماذا؟.. وعلىٰ كل حال لماذا يتجنب المشتركون في الاحتفال الهذياني النظر إليها؟!.. النظر إلىٰ تلك الحجارة البيضاء الصلدة.. وإلىٰ تلك الاشجار الصلبة المتعالية الساكنة في تعنيف مشفقة علىٰ أزمان كان للبهجة فيها حقيقة...

نبش عصام التربة بعود جاف راسماً علامة استفهام كبيرة بعض الشيء، ولكنه راح يجعلها عميقة.. أعمق وأعمق.. كان ينبش بنشاط متزايد.. وكأنه يبحث عن الحقيقة المدفونة هناك.. هناك في تلك الرؤوس المخمورة المتظاهرة بفرحة رخيصة.. رخيصة لأنها كاذبة.. إنه يجزم أنهم يكذبون، كل منهم يجهد حتىٰ الاستنزاف ليثبت للآخرين أنه جزلان.. ولكن كل منهم كما كان يعرف أن الآخرين كاذبون كان يعرف أيضاً أنهم يعرفون أنه يخدعهم ويكذب.. مثلهم تماماً...

وجاء احتجاج الشمس واصماً.. فقد اشمأزت من نفاقهم فتركتهم وانسحبت بعيداً وراء الأفق... وكان انسحابها معنفاً... أو هكذا بدا لعصام اليوم.. رغم أنه يعرف أن كل يوم مر عليه من سنوات عمره الخمس عشر

كانت الشمس تنسحب فيه وكان انسحابها يعني غروباً.. وكان انسحابها من سماء قريته يعني كما أفهمته جدته أنها ستشرق فوق قرية أخرىٰ.. ولكن الشمس لم تغرب اليوم لتشرق في سماء أخرىٰ فقط، ولكنها أيضاً انسحبت متقززة وبكثير من الازدراء.. ولكن لمن؟.. من تزدري الشمس؟.. وممن؟.. أو مما تتقزز الشمس؟..

فكر أن يسأل جده.. بل سيسأل أبا الليث...

تطلع إلىٰ هناك وراء تلك الجدران المبنية منذ عشرات السنين.. جدران البيوت الحجرية.. التي قطعت حجارتها البيضاء الصلدة بأيد أكثر قوة من قوتها.. إنها أيدي أجداده.. بل وحتىٰ أجدادهم هم أيضاً..

قضم العوم الجاف، ومضغ نثارات الخشب... أحس بالمرارة تسري داخله.. أين تغيب جده وجدته؟!.. بل لماذا تغيب لكل أولئك المسنون الموقرون؟!.. الذين أنجبوا كل أولئك الذين يتصايحون ويطبلون ويملؤون حقول القرية بتصويتهم الوحشي.. بصرخاتهم الايقاعية القصيرة الجارحة.. يسابقون بها تموجات مزامير الرعاة المندفعة كالعواصف الشتوية، أو كسيول مدمرة تلطم داخل النفس وتعصف به بوحشية..

وهنا اكتشف في وجوه شباب القرية ورجالها ملامحاً غامضة.. تراها الشعور بالوضاعة؟!.. بالمذلة؟!.. أم أنها رغبة جامحة في الانتقام.. الانتقام من الذات.. الانتقام من الآخرين.. ومن كل شيء!!..

سرق نظرة إلىٰ أبيه.. أبوه القوي.. فتىٰ القرية دون منازع.. فكان هو الآخر يراوح بنظراته بين الفراغ البعيد وموضع قدميه في التراب في حين كان حسده كله يهتز بعنف مع ايقاع الأهازيج..

أبداً لم يشاهد أباه هكذا.. أبوه الذي علمه أن ينظر مباشرة في عيون الآخرين، يراوح ببصره بين الفراغ البعيد والأرض المداسة المسحوقة تماماً بأقدام الراقصين!!!..

كان أطفال القرية يمضغون بعض الطعام دون حماسة، وقد استشموا أن وراء الاحتفال مأساة دقيقة تقطع كبرياء الكبار حتىٰ أن أحداً من الراقصين الزاعقين لم يكن لينظر في عيني أخد مطلقاً.. حتى الأزواج كانوا يتزلقون بأبصارهم جانباً عن زوجاتهم...

ركضت طفلة إلىٰ أحد تلك البيوت الحجرية وارتمت في حضن جدتها التي كانت تنتحب بخفوت.. وسألت برعب:

ـ جدتي.. جدتي لماذا كلكم حزينون.. هل ستموت عمة عصام؟؟..

فقالت الجدة وهي تمسح وجنة الصغيرة بكف مرتعشة:

ـ بل اليوم عرسها يا حبيبتي..

* * *

تواصلت الحركات المجنونة لرجال ونساء القرية، وسط زعيق وهمهمة يائسة تدب ببطء إلىٰ نحيب مفجوع.. وأصوات الموسيقىٰ الوثنية تضج بضراوة ملقية أقنعة كثيفة علىٰ حقيقة موجعة كان الكل موقناً أنها تقترب.. وتقترب.. مع كل زعقة.. ومع كل نفس يمضي في أبعاد الزمن المخجل إلى تلك الرئات اللاهثة والجائعة...

كلّت الوثبات، وخارت القوىٰ بعدما جرفت الخمرة الثقيلة كل شيء من الذاكرة.. أو أن هذا ما أريد منها.. ولكنها فشلت في حجب ظلال كئيبة كأشباح مفزعة تطارد أولئك التعساء...

وأمسىٰ المشهد مبكياً.. وقد تحولت الأجساد الخائرة إلىٰ ما يشبه قطيعاً من الخنازير المتبلده المستعدة لهز ذيلها لكل أحد..

ضاعت الأصوات والهمسات إن استثنيت شهقات مخنوقة سرت بين البؤساء وذلك عندما دلفت من أحد مداخل الساحة كوكبة من الصبايا الكواعب وقد اتشحن بالسواد، وارتدين ملابساً قاتمة سوداء، تتقدمهن صبية انتفخت عيناها واحمرتا من بكاء طويل مضن، ولكنها الآن تفتقد حتىٰ دمعة واحدة تروي تلك الشقوق المتقرحة حول مؤقيها وأنفها. . .

دخلت الفتيات الاحدىٰ والعشرون مطرقات. . وكان الحشد في الساحة أكثر منهن اطراقاً. . وبدا الأمر كله باعثاً علىٰ ضيق شديد في صدور الجميع. . حتىٰ أنهم ما شربوا الخمرة إلا ليلبدوا أحاسيسهم في تلك اللحظات. . والتي رغم كل تلك الخمرة قد فجرت في نفوسهم كآبة محرقة. .

كانت المشاعل المبثوثة في أطراف الساحة تنشر أخيلة متراقصة. . والنار وسط الساحة تنعكس علىٰ الوجوه الواجمة والأجساد المتجمدة، برقصة غجرية موسيقاها طقطقة الأغصان الجافة وهي تحترق. . .

الصوت الأول الطاغي كان طقطقة الاحتراق. . .

والصوت الثاني. . أنفاس مضطربة تتنابع بسلسلة من اللهاث الجاف. . .

وقفت الصبية المتقدمة عن كوكبة الفتيات، شامخة رافعة الرأس يطل وجهها الفتي وحده من أقمشتها السوداء الكثيفة.. أجالت عينيها المتقرحتين في الجمع المنهك.. فاستولىٰ عليهم خجل امتد حتىٰ أعمق نقطة في ذات كل منهم.. إذ راحتا تخترقان كل رأس من الحاضرين بالتتالي وببرودة أثقلت علىٰ الصدور.. فتمنىٰ كل من الرجال لو أنه هرب.. لو أنه مات ولم يأت الليلة.. لو أنه يموت الآن فينجو من تلك النظرات الرهيبة.. الواصمة...

وبقفزة خفيفة اعتلت الصبية المتقدة احدىٰ موائد الخمر منتصبة علىٰ قدميها، وملامح مخيفة قد ارتسمت علىٰ وجهها، استغرب الجميع ذلك.. فتطلعوا إليها مشدوهين.. وقبل أن يتحرك خاطر في ذهن أحدهم ألقت عنها بحركة سريعة ومصرة رداءها الأسود القاتم.. ذهلوا.. ذهل أخوها بطل القرية.. وذاك الرجل عروسها تأجج أو أراد أن يتأجج.. ولكنها لم تتح لهم ثانية واحدة ليفكروا أو حتىٰ ليتأملوها.. إذ بهتهم الصراخ..

ــ هيه يا أهل قريتي.. هيه يا رجالنا.. انظروا.. تأملوا.. أشبعوا عيونكم النهمة من ابنتكم فها أناصبية

ألقت عنها رداءها.. أسمعتم!!.. هيه أيها الشبان.. أما كنتم تسترقون النظرات إلي.. ها أنا أختكم أمامكم فاروّوا ظمأكم... وأنتم أيها الكهول.. ابنتكم التي درجت في رعايتكم ألا تودون امتاع عيونكم بصباها..!!!

أيها الشرفاء.. أيها الأبطال.. إن كان أحد سيستبيحني الليلة فليكن منكم أنتم.. لا منهم.. أسمعتم؟.. أسمعت يا أخي.. هيه يا عبد العزيز.. إيه يا فتىٰ القرية أتسلم أختك.. شقيقتك لذاك الجرذ القابع في جحره هناك؟؟!!!..

تكسرت أنظار الجميع.. تكسرت نفوس الجميع، وتملكهم احساس عميق.. إنها عرض محرم عليهم.. بل حتىٰ أحس كل منهم أنها أم لهم.. أم ومربية.. فما جرؤ واحد منهم أن يطرف بعينه نحوها.. فقد انغرست صرخاتها الحادة القاطعة الباترة بإحكام.. انغرست في قلوبهم.. في صدورهم.. وخزت ضمائرهم الخانعة فتمنوا لو يموتون كلهم مرة واحدة ويفلتون من تلك المحاكمة..

وأنشج أخوها هادراً وهو يضرب رأسه في زيتونة معمرّة.. يضربه بجنون.. ويضرب جبهته بقسوة وضراوة في الجذع الأصم:..

ـ عائشة.. عائشة.. كفىٰ.. كفىٰ.. كفىٰ...

ورفع رأسه يرجوها الرفق به.. فتملكه العجب، إنها.. إنها ليست عارية؟!!.. كيف؟!.. أفلم تخلع ثوبها الأسود..!!.. فمن إين جاءها هذا الرداء الأبيض..؟!!.. لقد خدعهم تناقض اللونين الأسود والأبيض وذلك الضوء الخافت الضعيف... وافرحتاه.. عائشة لم تتعر.. أخته لم تتعر.. إنها بلباس الطهر الأبيض، نقية كلونه..

أجهشت النقية ذات اللباس الطهر الأبيض صارخة:

ـ أنظروا أيها الناس.. أحسبتم أن نضن بأعراضنا علىٰ الغرباء ونبيحها لكم.. لا.. لا.. لا إنني لم أتعر.. ولكن أردت أنه أهز ضمائركم علكم تستيقظون من سبات غشىٰ القلوب واطفأ جذوة النخوة..

وتابعت غاضبة باعتداد:

ـ ارفعوا رؤوسكم.. هيا.. ارفعوها الآن، وارفعوها دوماً، ولا تحنوا هذه الجباه إلا للّه..

وأعلموا أنه إن ماتت كرامتكم وغيرتكم وأنتم الرجال.. فسنعرف نحن ذوات الجذور كيف نصون أعراضنا وديننا.. ونذركم ـ إن أبيتم النهوض ـ في حضيضكم الذي ارتضيتموه...

ثم التفتت إلىٰ عروسها منفعلة وقد كادت تفقد تماسكها:

ـ وأنت يا كريم الدين.. وأنت يا كريم الأصل.. أتريد الزواج بي ليفسق ذاك الماجن عليّ.. ذلك الحوت الذي يبتلع أعراضنا.. أعراضكم، آه.. قل يا شريف المحتد، ألهذا أحببتني لتشبع نهمة الخنازير من عرضي، وعرض زوجك.. عرض حبيبتك.. بل عرض ابنة دينك وعقيدتك..!!!

ثم انهارت، وراحت تنتحب قبل أن ترتمي أرضاً.. وأرسلت صيحتها الأخيرة من خلال نحيبها الجارح:..

ـ وأنتم أترضون ذلك..؟!.. أترضونه لابنة دينكم؟!.. لأخواتكم؟!.. اليوم أنا.. وغداً ابنتك أنت.. وأنت.. وأنت... كفاكم غفلة.. استفيقوا.. رحمة بنا.. رحمة بأنفسكم استفيـ.. ـيـ.. ـقوا.. و.. وا.

جمد القوم وقد تحجرت أنفاسهم، ثم تأججت فيهم مشاعر خارقة.. امتلؤوا بالحقد علىٰ اللصوص.. امتلؤوا بالعزيمة، وطفحوا بالخجل، بالعار من درس الكرامة لقنتهم إياه كريمة نقية من ذوات الحذور، تستنجد مروءاتهم بالصدمة.. بالمواجهة.. بصفعة قاسية

وحارة، فاهتزوا وسقطت أقنعة الرياء، وها هم أمام المرارة.. أمام هزيمتهم وضيعون.. وصنيعون.. أذلة...

وانطفأت بعض المشاعل.. ولم يتحرك أحد لاشعالها.. بل لم يتحرك أحد علىٰ الاطلاق، الصمت.. الصمت والعتمة وأشباح تهزأ بهم متراكضة.. متماوجة.. تلهو كالشياطين ها قد أخذتم الدرس الأول.. الصفحة الأولىٰ،.. ثم تعود وتتراقص..

وعائشة منهارة.. ما زالت باكية تتلظىٰ بدموعها.. والسكون يذبح الرجال، ورغم احساس النسوة الأخريات بالأسىٰ فقد أحسسن بلذة الانتقام.. فعائشة قد انتقمت لهن.. انتقمت لكرامتهن من أولئك الرجال الذين هم أزواجهن.. اخوانهن.. آباؤهن.. أبناؤهن.. فقد ثأرت لهن.. أردن أن يمسحن دموعها.. أن يواسينها.. ولكن ما جرؤت احداهن حتىٰ أن تنظر أبعد من قدميها...

مرت برهة طويلة.. طويلة، قبل أن تُسمع خطوات الحاجة أم الليث قادمة من بيتها الحجري، وكان أهل القرية علىٰ يقين أن أم الليث هي الوحيدة.. الوحيدة التي تستطيع أن تؤثر في تلك الظروف..

اقتربت الحاجة أم الليث من الفتاة المتلفعة بالصمت

وحملت إليها كساءها.. ودون أن تبدي أية ممانعة اندست عائشة في الثوب.. ثم التصقت باكية بصدر أم الليث ذات السنين الكثيرة.. وقالت وهي تمسح كفي أم الليث بدموعها:..

ـ أنت بقية العفة بيننا أيتها الحاجّة، لا.. لا أريد أن أتدنس أيتها الأم الحاجة.. أنقذيني يا كنز الطهر.. أنقذيني...

وفي ذات اللحظة سمعت همهمة خيل تقترب من الساحة قادمة من الطريق المفضي إلىٰ القلعة.. وخدشت الآذان همسات شهوانية حيوانية ترن بشكل كريه في الأجمة المطلة علىٰ القرية... جحظت العيون.. لقد جاؤوا.. جاؤوا...

التصقت الفتاة بأم الليث بقسوة.. وشدت الحاجة علىٰ كتفي الفتاة مشجعة، وكأن أمراً ما قد تم الاتفاق عليه بينهما... أما بقية الحشد فكانوا محاجراً.. محاجر فقط... ولهاث محموم.. وفارغ...

وفجأة انبثقت في طرف الساحة وجوه شمطاء فاجرة،.. وجوه أبالسة لعينه.. يقفز المجون والفجور والبغي من مآقيها.. ويتقدمهم كهل قارب الخمسين من عمره، مضمخ بشكل منفر بعطور زكمت الأنوف برائحة نتنة...

ودون أن يهتز هيكله الضخم وكما في المرات السابقة.. صرخ باستهتار وكأنه ينادي عبيداً أقناناً ملك يمينه...

ـ هيه.. أين تلك العروس؟

فقد اعتاد عمله تماماً... ثم تابع غامزاً بعينه بعهر حقيقي وهو يفرك كفيه بتلذذ:..

ـ أين هي تلك الحسناء الموعودة؟...

ثم انفجر بضحكة مجلجلة، وتجاوب الجنود القادمون معه، فانطلقوا يصفرون ويدوسون كرامة مجتمع.. كرامة أمة بأكملها.. وهم يلقون عباراتهم المقززة الىٰ نسوة مرتبكات ركبهن الحياء.. وفي حضور رجالهن بالذات الذين تصاموا مخافة السيف.. تصاموا كخنازير ديوثة تماماً...

أخرست النصال اللامعة الجميع.. فقد كان بريق الأسنة يلوح في أيدي الجند متوعداً.. وحسب القوم أن أحداً لن ينطق... ولكن صوتاً حاداً واثقاً ومستجمعاً، صرخ بلهجة متوعدة وغامضة..

ـ أنا هي...

التفت الجند الحقيرون إليها.. ينظرون يتلمظون.. ثم اقترب مقدمهم منها، وهو يمسد علىٰ لحيته الشيطانية..

ـ أنت!... أنت يا حلوتي... تعالي...

لم ينتظرها حتىٰ تتحرك، بل اتجه نحوها متمهلاً، وتبعه أحد الجنود يسوق خلفه حصاناً لتركبه لتصحبهم...

ولأول مرة منذ أن مارس ذاك المقدم عمله القذر هذا أحس بخوف.. بذعر، وهو يتقي الشرارات المتقدة من عيني لبوة مستفزة..

وكاد يلامسها عندما افترت شفتاها عما خيّل إليه أنه ابتسامة موت صفراء..

ـ إيه يا مقدم عهر الطاغية.. كم من عرض من أعراض قومك قاسمت سلطانك القذر عليه أيها النجس؟!..

باغتته اللهجة المتوعدة.. كما أذهلت الجميع.. حتىٰ الجند تسمروا.. فتاة تتحدىٰ من لقبته (بمقدم عهر الطاغية)...

وبخفة أمسكت يد يسرىٰ بصنة لحية المقدم الكثة، متمكنة منها، ثم استلت اليمنىٰ سيفاً قصيراً عريض الشفرة من بين طيات الثوب الأسود الفضفاض..

ـ ربما ستقدم لسيدك ابنتك أيضاً يوماً ما أيها الكلب الماجن الفاسق؟!...

وقبل أن يستفيق أحد هوت الشفرة العريضة الوامضة برشاقة علىٰ صفحة الكلب الماجن الفاسق.. وبلمح البصر أصبح الرأس النتن في قبضة فتاة كانت ستقدم للطاغية كوجبة اضافية جديدة بعد عشائه المتخم...

فجفل الحصان وعندما التفت الجندي المبهوت ليشد لجامه.. عاجله السيف الرشيق بضربة مسددة في منتصف الجبهة تماماً..

وهنا لم ينتظر أحد اشارة من أحد، وبحركة جماعية أطبق الجميع علىٰ الجند الخمسين الذين يشكلون الموكب.. وقاتل النجسون مستميتين واستأسد أهل القرية، وكانت ملحمة رغم أنها لم تستمر طويلاً فقد توفر خلالها لأحد الجنود متسع من الوقت ليسدد سهماً مسموماً إلىٰ... عائشة، فقضت شهيدة بعدما أشعلت الشرارة..

واستشهد من أهل القرية الكثيرون ولكنهم رغم هذا ذاقوا طعم الانتصار والكرامة. طعم افتقدوه منذ سنوات بعيدة

وهكذا ومض بريق التحدي.. وومض بريق الفخر والأمل، فاشتعلت الصدور.. وهتفت حناجر مخلصة كاد أن ينخرها صدأ الخمرة...

«لا إله إلا اللّه.. عائشة والشهداء أحباب اللّه».

obeikandl.com

الفصل الثاني

«والصواب من القول عندي أنه ـ أي الطاغوت ـ كل ذي طغيان علىٰ اللّه. فعُبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، انساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء».

(الطبري ٣/ ١٣).

obeikandl.com

فـرغ صبـر الملـك (الجـرذ) القـابـع دائمـاً فـي جحره.. فها قد انتصف الليل ولمّا يرجع بعد الموكب حاملاً إليه العروس الجديدة ليبارك زواجها!.. ويمنع تلك الأسرة الجديدة من رعاياه الغبطة بقبوله لفتاة من القرويين في مخدعه الملكي!!.. ولليلة واحدة فقط!.. الليلة الأولىٰ...

صرخ ضجراً:

ــ غضب.. أين ذلك الكلب بن الكلاب؟!.. اهتز رئيس الحرس.. قريب الملك.. المنحدر وإيّاه من مستنقع واحد..

ــ سيدي.. أيكون قد اختص بها نفسه؟.. أو...

ــ سأسحقه.. سأسحقهم.. أنا؟!.. أنا ملكهم وربهم أنتظر؟!.. بل وانتظر حتىٰ يسأمني الانتظار؟!.. وماذا أنتظر كلب منهم يحضر لي جروة أتلهىٰ ليلة..

ــ عفو مولاي.. سأبعث الآن بسرية تأت به أو بخبره.. وإن كان متقصداً التلكؤ فسنضرب عنقه.

ـ لا . . لا . . ليحضروه . . فقط ليحضروه وإيّاها . . لا تنسوها . . .

وتابع هامساً . . من أين لي بكلب مثله يعرف كيف ومن يصطاد! . . ذلك الكلب بن الكلاب . .

مرت فترة ليست بالقصيرة قبل أن يعود غَضب ممتقع اللون يهرول إلىٰ المخدع الملكي حيث باغت الملك خالياً بزوجة كلب صيده، فارتد راجعاً ولكن الصوت الملكي ناداه: . .

ـ ايه . . غضب . . أيها اللعين . . لا تتحامق الآن وتتظاهر بالورع . . أيها الجيفة قل ما وراءك؟؟ . .

ـ سيدي . . أنباء مزعجة . . عادت سرية الاستطلاع و . . و . . .

ـ هيه . . أخرست؟! . . تكلم . .

ـ لقد قُتل المقدم . . قتله القرويون . . .

شهقت زوج المقدم (كلب صيد الملك)، وسحبت نفسها من بين يدي الجرذ، فعاجلها اللئيم بصفعة مدوية ثم ألحقها بسيل من الشتائم البذيئة أفاضها عليها وعلىٰ كلبها وعلىٰ من أسماهم بسلالة الكلاب التي أنجبتهما، وهو يطردها من حضرته الملكية . . .

فانسحبت ذليلة وهي تحاول ستر عريّها وتكاد تتعثر

في خطاها العجلة خارجة إلىٰ مقصورتها تندب زوجها...

ــ و.. و.. وقد قتل الخمسون.. قتلوا جميعهم يا سيدي...

اكفهر وجه الملك.. وجحظت عيناه ببشاعة..

ــ قتل خمسوناً من اخوتنا؟!.. خمسوناً مرة واحدة؟!..

وضرب المنضدة بقبضته (السامية) فتطايرت أقداح الشراب المعدة لليلته الحمراء الموعودة، ولكنها فاتته وقد انطلقت الشرارة.. فاتته الليلة الحلم مع بكر كاعب جديدة.. فيا لمصيبته اليوم وقد قتل كلب صيده الثمين ولكن لا بأس فقد ترك زوجاً بحالة جيدة!.. وفتاة أضحت قمراً يستحق أن يزين به لياليه الفاجرة.. همس.. ألن يأتي ذلك اليوم يا سهاد!.. آه.. وقد قُتل خمسوناً من أولئك الذين يحملون في عروقهم لون دمه.. سأنتقم.. خمسين امرأة وخمسين طفلاً وخمسين رضيعاً..

ــ غضب.. غداً.. غداً يا غضب وفي منتصف الليل.. بعد ما يغفو اولئك الكلاب.. اهجموا عليهم.. مزقوهم.. اسحقوهم.. سوقوا لي نساءهم قطيعاً..

ذبحوا رجالهم... أحرقوا... انهبوا.. و.. وأتوا بالذهب إليّ...

ــ أمرك يا سيدي.. سنأتيك بالذهب.. والفضة أيضاً.. ثم همس بخباثة:..

ــ وأجمل النساء يا سيدي..

انفجر (الجرذ) مقهقهاً.. ها هو غضب يهز ذيله من جديد...

* * *

وفي اليوم التالي هجع أهل القرية إلىٰ مضاجعهم بعدما أمضوا يوماً طويلاً في جدال استمر إلىٰ ساعات الليل الأولىٰ وهم يجتزون أحداث يوم أمس العاطفة والصاعقة..

وبدا وكأن بعضهم آسفين لما حدث، فقد طارت الخمرة وجاءت الفكرة كما قالوا متفلسفين.. ولكنها أفكار أشد فتكاً من العدو.. ألا يكون هناك إلا الأسف.. الأسف المدمِّر...

والآخرون كانوا يهتزون طرباً.. فللمرة الأولىٰ أوقعوا بجنود الطاغية الغرباء ومرغوا أنفه في التراب...

كما أن بعض الأصوات الخجولة قد سمعت تترحم علىٰ مقدم الجند المقتول، المنحدر من أهل القرية، بل

وكان أحد متزعميها قبل أن يفد ذلك المتسكع مع عصابته من الغرباء ويستولوا علىٰ القلعة بعد أن ذبحوا أمير القرية الذي حاول الفرار عبر ممر القلعة السري. . . وكان ذلك المقدم المقتول من جملة من مد يده إلىٰ ذلك المتغلب الغريب. . .

المهم أن التيار الأعظم في القرية كان يحس بالصدمة وقد أيقظته، وإن كان إمام القرية قد تساءل بصوت عالٍ نرىٰ إلىٰ أي مدىٰ أيقظتهم؟

ولم تنقطع طوال النهار الاشادة ببطولة عائشة وشجاعتها التي كما همست بعض النساء. . قد علمت الرجال الشجاعة. . .

فهم قد أووا إلىٰ فرشهم والارتياح يهدهدهم، والتلذذ بمأثرتهم يضفي عليهم شعوراً بالعزة لطالما افتقدوه. .

وفي تلك الأثناء كان ما يزيد عن مئتي جندي يتلمسون طريقهم بحذر تحت جنح الظلام نحو القرية النائمة. . .

أحكم الجنود الطوق حول القرية وعيونهم تنضح بالحقد والرغبة في التنكيل والانتقام. . والكثيرون منهم

يمنون أنفسهم بالتمتع بسلب القرية من مال وغلال وحلي و.. وأعراض أيضاً...

آه.. فمنذ متىٰ وهم محرومون من لذة كهذه.. لذة استباحة قرية كاملة.. يقتلون من يشاؤون.. يسبون من يشاؤون.. يحرقون ما شاؤوا ومن يشاؤون.. ينهبون كيفما أرادوا.. ولا من رقيب.. ولا من رادع، أو هكذا كانوا يظنون...

ولم يكن الجنود بأجمعهم من الغرباء، بل إن بعضهم كانوا من شبان القرية ورجالها، فاستسهلوا العبث بين قدمي المتسلط الباغي وأصبحوا أداة طيعة في يده يوجهها كيف شاء، بل وكثيراً ما كانوا يفوقون الغرباء شراسة ووحشية في التشفي من أبناء جلدتهم العزل..

وبعدما أحكم الحصار جيداً واطمأن بدر إلىٰ غفلة أهل القرية وسكون كل الحركات والأصوات فيها أمر جنوده، فأشعلوا المشاعل وما كادوا يفعلون حتىٰ أشار إليهم بالهجوم الصاعق، فانقضوا وهم يطلقون الصرخات الضارية.. ويقتحمون أزقة القرية ومنازلها الحجرية متراكضين شاهرين أسلحتهم فزع النائمون.. وهبوا من فرشهم ولكن السيوف كانت أسرع من انتباهتهم.. وبدأت مذبحة قذرة.. القتلىٰ يُحصدون بشبق.. أي

كائن يصدر صوتاً كان يُقتل بنهم.. يُذبح.. يُسحق.. يُفتت، رجلاً كان أم طفلاً، عجوزاً أو رضيعاً، فلا فرق...

والنهب.. النهب كان يتم سريعاً.. الأيدي الجشعة والعيون المتلهفة للذهب.. للحلي.. كانت تعمل بسرعة تبحث عن كل ثمين.. تقطع أكف النساء لتسحب حليهن، وتبتر الأصابع لتستملص الخواتم منها.. وكم من امرأة انتهكت والدماء تسيل من كفها المبتورة أو كفيها معاً.. فلا يهم..

وهكذا كان.. والصرخات الفزعة.. المرهقة.. البائسة تتردد في الحجرات والأزقة.. وامتلأت الطرق بجثث من حاول الهرب، والدماء.. الدماء صبغت كل شيء، وزعقات الأطفال ترتد يائسة وهي تستنجد بآباء قتلوا أو أمهات سُحبن إلىٰ.. بعض الزوايا المظلمة!!!..

نعم.. نعم مأساة دامية همجية.. وما كانت لتكون هكذا لو لم يكن الناس غافلين نائمين...

واستطاع البعض الهرب إلىٰ طرف الغابة.. راكضاً لا يلتفت إلىٰ الوراء.. وفي كل خطوة يحسب أنه مقتول، ركضوا عزلاً.. متجردين من كل شيء سوىٰ من أنفاس

تتلاحق في صدور خافقة..، وعروق الدم اختفت وغارت وكأنما خافت هي الأخرىٰ فاندست عميقاً.. بعيداً عن السطح كيلا ترىٰ، وحدها العيون جحظت من محاجرها تفتش عن طريق للهرب وسط غابة متشابكة وظلام مطبق، تلاحقها من بعيد مستنجدة أصوات أنثوية تسترحم.. تستعطف.. تستصرخ.. تصرخ من الأعماق.. وامعتصماه.. وامعتصماه.. وا اخوتاه، ولكن لا معتصماً اليوم يا فتاة فقد قتلت الخمرة النفوس طوال السنين.. وخُدرت الكرامة عبر القتل البطيء للقيم والشهامة.. وسُلبت الارادة وسُحقت العزة بالكبت والتنكيل، وغدا الناس معتادين علىٰ حياة هابطة، ولكن ما فاتح أحدهم أخاً له بأي شيء عن هذا!!.. فالكل كانوا صامتين.. يجترون ذلهم وأيامهم الميتة، والآن.. ما حصل ويحصل الآن إن هو إلا تحصيل حاصل.. ونتيجة مهدت لها مقدماتها المعروفة، وما كانت صرخة عائشة في ضمائرهم إلا ومضة برق خاطف في ليل سادر طويل...

وفي أحد دروب الغابة العتمة والغير مطروقة سار أمام مسجد القرية الذي شارف علىٰ السبعين مسنداً زوجه أم الليث.. بقية الطهر والعفة.. وهو يهمس أسفاً..

لكم نصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين . . .

* * *

وعند الظهيرة توالت فلول الهاربين المستنزفة من الرعب والخوف والجوع والانهاك تصل إلىٰ فسحة وسط الغابة تتفجر علىٰ مقربة منها عين ماء . . .

وبعد أن مص كل منهم رشفات من النبع أخذ يبحث عمن نجا من أهله . . وما أقلهم! . . فقد غاب كثير من الرجال . . أما الصبايا اللواتي وصلن فكن معدودات . . ثم ارتمىٰ الجميع علىٰ الأرض المعشوشبة دون أن يفوه أحدهم بكلمة أو يعلق علىٰ ما حدث ولو بهمسة!! . . وحتىٰ الغائبون والغائبات لم يسأل عنهم أحد؟؟!! . . وحده إمام المسجد صرخ فيهم عندما وصل معيناً زوجه المتعبة . .

ــ لكم نصحت لكم يا قومي . . ولكنكم لا تحبون الناصحين . . يا قومي توبوا إلىٰ بارئكم واخلصوا نياتكم . . وهيا فألقوا الزّين عن قلوب غلفها الصدأ . . ولا تستمروا علىٰ غفلتكم متخبطين . . . واذكروا آن اللّه ناصر من ينصره . . .

فها قد سُلبتم المال والمنزل والعرض والاخوة

والأبناء فعلىٰ ماذا تحرصون؟؟!!!... أتخشون أن يفارقكم الذل والهوان؟؟!!.. والله ما أرىٰ قد بقي لكم غير ذل مقيم مستطاب وخوف أطار منكم الألباب..

ثم رفع يديه ووجهه إلىٰ السماء مردفاً بحرقة:

ــ اللهم إني ابرؤ إليك من تخاذل المظلومين، ومن تثاقل المستضعَفين...

* * *

مضت ساعتان تقريباً قبل أن يظهر عصام وحوله خمسة من أقرانه وبيد كل منهم لفافة طويلة.. وقبل أن يبحث أي منهم عن بقايا أسرته اتجهوا مسرعين إلىٰ أبي الليث.. إمام المسجد...

ــ السلام عليكم..

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ماذا وراءكم أيها الأشبال.. هيه.. بعون الله سار كل شيء كما اتفقنا؟...

ــ لقد اختفينا طوال الوقت في ذرىٰ الأشجار المحيطة بالقرية.. واستطعنا قنص عدد كبير منهم.. ولم يستطيعوا كشفنا.. وقد شاهدنا كل شيء.. إنه فظيع.. هناك بعض الفارين في طريقهم إلىٰ هنا.. وقد قتل

الكثيرون يا أبا الليث.. واللواتي نجين من القتل يسرن الهوينا هائمات علىٰ وجوههن في الغابة مصعوقات وقد هدهن الانهاك..

قلص أبو الليث عينيه.. وتابع الاستماع بهدوء..

ــ إنهم ينهبون الغلال يا أبا الليث، ويشحوننها إلى القلعة...

سأل أبو الليث وهو يضبط أعصابه ولكن القلق طغا علىٰ وجهه...

ــ وأين باقي اخوتكم؟؟

ــ لم ينج منا سوىٰ أربعة عشر.. ثمانية منا يرشدون النسوة الواهنات إلىٰ هنا.. وها نحن البقية أمامك، ننتظر أمرك...

ــ «ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»... اللهم لا تفتنا بعدهم.. وخذ بيدنا إلىٰ ما تحب وترضىٰ.

ثم أسر أبو الليث للفتية بكلمات.. هزوا رؤوسهم مؤكدين أنهم فهموا أمره.. ثم انسلوا مسرعين باتجاه طرف الغابة الآخر المشرف علىٰ القلعة، وقد احتضنوا لفافاتهم الطويلة والمقوسة...

ولم يهتم الآخرون كثيراً بما جرىٰ بين أبي الليث والفتية.. فقد اعتادوا أن يتردد الفتية باستمرار علىٰ المسجد يمضون فيه أوقاتاً طويلة، أو يخرجون مع الإمام المسن في نزهات تمتد أحياناً من مشرق الشمس وحتىٰ مغربها، في الغابة...

* * *

وبينما راحت عربات الجند المثقلة بالغلال المنهوبة تأخذ طريقها صعّداً علىٰ الهضبة التي تربض عليها القلعة وقد شارفت علىٰ اجتياز القنطرة المنصوبة فوق الخندق المحيط بالقلعة والموصلة إلىٰ بوابة القلعة العملاقة، أطلت ست رؤوس فتية من بين الأحراش القريبة.. وسرعان ما انطلقت من هناك سهام مشتعلة الرؤوس لتستقر في عربات الغلال محدثة حرائق مفاجئة اشتعلت الحبوب الجافة بسرعة في العربات.. واشتعلت العربات.. بوغت الجند المتعبون فهم منذ مجزرة الأمس لم يناموا، وقبل أن يتكيفوا مع المفاجأة جفلت البغال التي تجر العربات وقد لفحتها النيران اللاهبة، فراحت تركض مضطربة فوق القنطرة إلىٰ القلعة.. فسرت النار في القلعة وما لبثت أن انتشرت إلىٰ مخازن الحبوب التي كانت مشرعة الأبواب لاستقبال الحبوب المغصوبة..

ومرة واحدة أصبحت ساحة القلعة التي كانت هادئة قبل لحظات، تستعر ملتهبة وأخذت النيران تزحف علىٰ كل شيءٍ. . . واستفحلت الفوضىٰ فاختلط صهيل الخيل الهاربة من حظائرها التي وصلت إليها النار، مع صياح الجنود السكارىٰ المبهوتين، مع هسيس النيران المصطلمة؟ في أنشودة فزع واضطراب متعالية .

أطل الطاغية من غرفته فهالته النيران والفوضىٰ والذعر يسيطرون علىٰ القلعة، فصرخ بجنون:

ـ غضب. . غضب. . أريد رؤوسهم. . انطلق. . رؤوس الاشقياء أو رأسك. . .

اختار رئيس حرس الطاغية ثلة من الجند فامتطوا أحصنتهم ثم انطلقوا وراءه نحو الأحراش من حيث انطلقت تلك السهام المحرقة. .

همس عصام وعيناه ترقب الجند المسرعين نحوهم. .

ـ رافع. . هل أحكمت الأنشوطة تماماً. .

ـ نعم. . كن علىٰ ثقة. .

ـ عمر. . النصال المسمومة جاهزة. .

ـ إنها بانتظارهم. .

وبهدوء أشار عصام لصحبه فانسحبوا مبتعدين،

ليكمنوا مرة أخرىٰ علىٰ جانبي الطريق الغابيّ الضيق الذي سيضطر الجنود لسلوكه، وكانت الأغصان والشجيرات الكثيفة تحجبهم تماماً وقد هيأ كل منهم قوسه ونثر كنانته بجانبه.. أسر عصام لمن حوله.. يجب ألا ينجو منهم أحد...

وجاءت الخيل مسرعة كالشهب بفرسانها الشاهرين سيوفهم وقد أحنوا ظهورهم ليتفادوا الأغصان المتشابكة، ولكن ما أن قطعوا أمتاراً قليلة حتىٰ تعثرت الخيل كلها بغتة وتدحرجت بركّابها فاصطدم الجميع ـ الخيل والرجال ـ ببعضهم وخرجت من أفواه المتجبرين أنّات ألم تشكو عظاماً مسحوقة وأضلاعاً محطمة.. وأخذت الدماء أيضاً تنزف من الأجساد التي بدت تفقد القدرة علىٰ أية حركة، وحتىٰ الأنّات أخذت تتخافت وكأن مخدِراً نشيطاً سرىٰ في أجسام الجميع، وحتىٰ الخيل التي نهضت تتهادى بوهن ما لبثت أن ارتمت بعد خطوات، هامدة...

ولما اطمأن عصام وصحبه إلىٰ نجاح المهمة.. توجهوا مباشرة إلىٰ وسط الغابة حيث اجتمعت القرية.. فألفوا القوم علىٰ حالهم ملتصقين علىٰ التراب بوجوم وجمود لا يقطعه سوىٰ نهوض البعض ليعبّ بعض الماء

من العين أو أن يبحث في القرب عما يمكن صيده أو أكله..

حث الفتية خطاهم إلىٰ أبي لليث، الذي نهض متبشراً بعودتهم السريعة.. وأبلغ عصام قائده عن تنفيذ ما أمرهم به.. وأخبره كيف أن كمين الحبل المتين المشدود بين شجرتين قويتي الجذع والمموّه جيداً قد تكفل بتعثر كوكبة الجنود التي أرسلت في إثرهم، وأن أولئك الجند لم ينهضوا من تعثرهم أبداً لأن النصال الحادة المسمومة والتي كانوا قد غرسوها في ساحة الكمين قد استلت منهم أرواحهم ببطء.. فماتوا عن آخرهم دون أن يصدر عنهم إلا أنيناً خافتاً همد شيئاً فشيئاً...

شد أبو الليث علىٰ أيدي الفتية وهو يرىٰ بذاره أثمرت أضعافاً كثيرة.. ثم اتجه بصوته الهادر إلىٰ أولئك الملتصقين بالأرض..

ـ هيه أيها القوم.. انظروا إلىٰ قلعة الطاغية..

استدارت الوجوه المتحجرة.. مستغربة مشهد الفتية والقسي بأيديهم وجعب السهام معلقة بأكتافهم.. ولكن القوم كانوا متناهكين فما حرك أحد تعبيراً علىٰ وجهه رضىٰ او استنكاراً.. وحتىٰ صوت أبي الليث ما حرك

فيهم سوىٰ رؤوساً ثقيلة استدارت إليه متسائلة بكسل.. قلعة الطاغية!.. وما بها قلعة الطاغية!!.. إنهم يعرفونها تماماً حتىٰ أنها لتجثم علىٰ صدورهم حتىٰ في أحلامهم مسببة لهم كوابيساً رهيبة.. ثم كيف يرون قلعة الطاغية من خلال كل هذه الحواجز الكثيفة من الأشجار التي بالكاد تمرر إليهم بعض الضياء والهواء الطلق...

ــ أيها الناس.. إن قلعة الطاغية لتحترق...

تحترق!.. القلعة تحترق!!.. وتصعدت صورة التشفي من الظالم بالتلذذ بمشهد عذابه.. فهبت الجموع وهي لا تكاد تصدق.. تلك القلعة تحترق؟!.. ودون تردد قفز عبد العزيز.. والد عصام إلىٰ أطول شجرة رآها بجانبه.. تسلقها بخفة ثم هتف طرباً...

ــ إنها تحترق.. صدقوني.. الدخان يتصاعد منها.. إنها معجزة.. معجزة..

ضحكت الوجوه الحزينة.. وتصاعدت الهمسات.. اللّه أكبر، إن اللّه ينتقم لنا..

وركض الكثيرون يتقافزون علىٰ الأشجار ليروا هم أيضاً وبأعينهم بالذات، أعينهم التي طالما رُوّعت بظلم الطاغية، فلتغسل عنها بعض الخوف بمشهد احتراق أجنحة الظالم...

وتعالىٰ هرج القوم وتصايحهم المتشفي، وهم يتبادلون التعليقات والتهاني.. وأبو الليث ما زال منتصباً بصلابة.. وعيناه تشعان اصراراً يخترق حجب اللحظات، وحوله انضم الفتية الستة يستمدون من صلابته الصلابة، ومن بعد نظرته الثقة...

وفجأة التفت الجميع فزعين متسائلين إلىٰ طرف الغابة الآخر.. إلىٰ هناك حيث تقبع القرية.. حيث سمعت.. أوضح وأوضح.. جلبة وأصوات كثيرة لأغصان تتكسر.. وبدا وكأن الجلبة تتقدم مترددة!!!..

استولىٰ القلق علىٰ النفوس.. أكنا نرقبهم من الشرق فأتونا من الغرب؟!.. فشعروا أن قد أسقط في أيديهم.. وتهيأ بعضهم للهرب.. بل واختبأ بعض الرجال خلف الأشجار متوارين عن الأنظار المجهولة... بينما انبطح آخرون هلعين، بين الأجمات والأعشاب المتشابكة...

دقائق مرت وهم علىٰ هذا الحال،.. وقلوبهم تتراقص مضطربة في صدورهم.. ثم ما لبثت رؤوس مشعثة منفوشة الأشعار تطل من بين الأشجار، وقد أضناها مزيج من القرف.. والحقد.. والكآبة.. والارهاق.. وحياء مذبوح يرف من جنبات أثقلتها هموم تكاد تسحق الروح...

واتضح لهم الأمر.. فهرب الكلام وودوا لو يهربون معه.. وغارت الدماء الحارة مخلية المكان للعرق البارد... واختفت الأشخاص وراء شحوب الموتىٰ.. الموتىٰ القوة والفعل!! رغم كل امكانياتهم المجمدة.. المحجرة.. المتجلدة.

وعرف الجميع من الموكب... ويا للخجل.. إنهم الفتيات والنسوة اللواتي خلفوهم هاربين تاركينهم لعبث الغزاة!!!!.. فكان اللقاء صعباً، ضيّق علىٰ الأنفاس.

وهكذا التأم جمع الباقين أحياء.. أحياء الجسد.. أما الأمور الأخرى..!! ظلت المتعبات واقفات علىٰ طرف المكان يحوطهن ثمانية من أصحاب عصام، يحدجن الرجال بنظرات قرف واحتقار.. وهمست احداهن بازدراء وقسوة..

ـ إيه أيها الآباء.. أيها الاخوة.. أيها الأزواج.. أيها الأبناء، لقد فررتم بجلودكم حقاً ولكنكم اشتريتم بأعراضكم أياماً قليلة..

ثم أردفت بغثيان..

ـ وذليلة.. قليلة وذليلة...

وصرخت أخرىٰ باصقة:

ـ لقد نجحت خطتكم أيها الصناديد، فانشغل الجنود.. بنا عن ملاحقتكم، فكانت خسائركم قليلة.. فقط الشرف والكرامة، وما أهونهما علىٰ الديوثين...

* * *

أجال أبو الليث نظره في الوجوه.. تلك الوجوه التي غشّاها السأم.. السأم من العار المنيخ علىٰ أزمانهم.. السأم من أجساد مسخرة، تزرع وتحصد الأرض، وتحلب الماشية وترعاها، وتقطع الأشجار وتصنعها، وتلد الأبناء والبنات، ثم.. ثم يأتي أولئك الغرباء.. كلاب الجرذ القابع في جحره فيسوقون كل شيء.. كل شيء بالتمام.. ولا يتركون لتلك الحيوانات المسخرة.. لأولئك العبيد المستعبدون من داخلهم، إلا ما يقيم أودهم كي يعيدوا الكرة مرة أخرىٰ.. الكفاف من الطعام، ونساء لا تشتهيها نفس الطاغية وإلا لما بقيت لهم هي الأخرىٰ.. ثم هناك الكثير.. الكثير من الخمر.. وهذا كل شيء!!!..

وهدر صوت أبي الليث المحنك.. الذي خبر الأيام وعاين سننها..

ـ يا قوم ها قد خسرتم كل شيء.. فهلا صحوتم اليوم علىٰ خسارتكم التي تمت منذ أمد بعيد..؟!..

فمنذ عشرات السنين وأنتم تنزفون.. نزفتم عرقكم غلالاً ومحاصيلاً، ومدخرات اغتصبها منكم المتربع علىٰ القلعة، المتربع فوق رؤوسكم، نزفتم دماءكم في غارات جنده كلما راق له أن يتأكد ويؤكد لكم سطوته عليكم.. نزفتم أبناءكم بين قتيل ومخمور وملتحق بأعوان الطاغية.. نزفتم دينكم بجهلكم وهوانكم وخنوعكم.. نزفتموه بظلمكم أنفسكم واخوانكم.. نزفتم شرفكم بإباحتكم أعراضكم للطاغية وأعوانه خوف الأذىٰ...

فماذا بقي لكم؟!.. ولم تلكم الأنفاس تتردد في صدوركم؟؟!!.. أَليوم آخر من الضعة والمهانة؟!!!!.. أم لجرعة أخرىٰ من المَذلة والحقارة؟!.. ربكم يقول؛

﴿.. أتخشونهم؟! فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾..

فماذا أقول لكم أيها الغُفّل؟! وهل بعد بيان اللّه من بيان؟!.. فأين أنتم من الايمان إن خشيتم أحد سواه..؟!..

ومما الخوف؟!!.. أترون كل هذا الجبروت المتسلط عليكم.. اليوم والأمس فقط، خسر أكثر من ثمانين ذئباً من أعوانه.. بينهم خائن قومه مستشار الطاغية في شؤون استنزافكم وعصر مقدراتكم.. وبينهم

رئيس حرسه مسؤول تركيعكم.. وها هي الحرائق تتقد وسط وكره.. وتلتهم غلالكم المسلوبة وما حوت مخازنه وكله من عرقكم.. فما دمت سلبتموه فلن نسمح لهم أن يتقووا به علينا..

أيها النيام لم الخوف من عبيد يخافونكم أكثر مما تخافونهم؟!.. وإنكم لقادرون علىٰ الحاق الهزيمة بهم واشادة حياة كريمة لكم ولابنائكم إن سلكتم طريق ربكم المستقيم...

أتدرون من أشعل النيران في القلعة؟.. أتدرون من بطش بسرية كاملة علىٰ رأسها رئيس الحرس نفسه؟؟.. ومن كمن للجنود أثناء انسحابهم من غارة الأمس ونكل بهم؟؟؟.. إنهم ثلة قليلة من فتية آمنوا بربهم فقوّاهم وأرشدهم وأيدهم بنصره.. ثلاثون فتىٰ استشهد بعضهم وهؤلاء هم بقية المجاهدين أمامكم.. أربعة عشر بطلاً مجاهداً.. رغم أنهم في عيون الكثيرين منكم أطفال لا يليق بهم سوىٰ اللعب!!..

ولطالما دعوتكم في المسجد والساحة.. وزرتكم في بيوتكم وناديكم عنفتكم تارة.. وألنت لكم أخرىٰ، وما من مستجيب... آذان صماء.. وعيون سرقتها

الشهوات.. وعقول أثقلتها الخمرة فهي متلبدة أضحت حمىٰ للمنكرات...

وما استجاب لي سوىٰ ثلة الفتية الأنقياء.. رحم اللّه الشهداء وبارك جلّ وعلا في جهود المجاهدين الاتقياء..

واذكروا أيها الناس أن اللّه لا يهدي القوم الفاسقين الذين يقدمون الدنيا علىٰ حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيل اللّه واعلاءً لدينه الذي فيه وحده سعادتكم وتحقيق انسانيتكم وبه وحده تتحررون من العبودية للطغاة.

رنت النفوس ساكنة، وشريط الماضي ينسال أمامها مرّاً مُمضاً.. وتذكروا كل شيء.. الأيام الضائعة هباء.. الامكانيات المسفوحة علىٰ مذبح الخوف والشهوات.. والأعمار التي تقضت في السفاسف متيحة للأعداء التمكن من الرقاب والأرزاق والأعراض.

وعلا الندم والأسف.. بل علت الحسرات الوجوه.. وعض الكثيرون شفاههم تغيظاً.. تغيظاً من ذواتهم المتهالكة التي أسال تهالكها لعاب الطامعين المستبدين فاستمرؤوا الطغيان واستباحة الحقوق...

وومضت في رؤوس النساء فكرة.. ونحن أيضاً لم نستجب لتذكير وما قبلنا النصح.. ونحن أما لنا من

دور؟!.. وهذه عائشة.. الفتاة ذات الأعوام السبعة عشرة، فجرت الرتابة.. وقدحت الشرارة...

خمن أبو الليث كل هذا، فاتجه بتقاطيعه القاسية الصارمة إلىٰ عبد العزيز، وأمسك بتلابيبه يضغطها بعنف..

ـ وأنت يا فتىٰ القرية المقدام!.. وأنت يا أشجع الشبان!.. يا من بنيت أمجادك علىٰ العراك مع أبناء قريتك، وتحدي المساكين الضعفاء من أبناء جلدتك!!.. هه.. وفزت بلقب أبي السباع لتجرعك الخمرة بالكؤوس الكبار، فيا لك من ذي حظ عظيم ففي كل غارة كان النهب والدمار يطال كل شيء إلا خوابي الخمر..

وتابع وهو يهزه بشدة:

ـ أليس كذلك؟.. الخمرة تنجو كل مرة!.. ترىٰ أفكرت أنت.. ترىٰ أفكر أحدكم لم كانت خوابي الخمرة وحدها تسلم في كل موجة دمار من التلف؟؟.. أفكرت بهذا أيها المصارع العظيم؟.. أم شغلت عن الفكر والتفكير بالجري مخموراً وراء فتيات القرية من خلف ظهور رجالهن... وبشجارك بعد كل قمار تخسره؟!...

صغر عبد العزيز في نفسه.. وصغر.. وصغر.. أحس نفسه بحجم ذبابة.. تمنىٰ لو كان حشرة تسحقها قدم أبي الليث وينتهي.. فيا لها من أمجاد وضيعة، تعجب.. كيف كنت أفخر بأمور تنبع من مثل هذه السفالة والحقارة؟!!!.. آه لو يهرب ويركض بعيداً في الغابة.. ليته يمسك برقبة الطاغية ويقصفها.. هه.. هه.. أين أنت وأين الطاغية... الطاغية في حصنه ومنعته وأنت هنا كما ترىٰ وتسمع ورائحة خمرة البارحة ما تزال تفوح منك.. بل ومنذ قليل.. منذ قليل فقط كانت عيناك الخائنتان تسترقان النظرات البهيمية لفتاة ذبح الغرباء حرمتها منذ ساعات فقط.. أنت والغرباء.. الغرباء وأنت.. يا لفظاعتها من خيانة...

وتردد الصدىٰ في صدره.. حقير حقير.. إنك حقير سافل يا عبد العزيز.. واسمك عبد العزيز!!.. هه.. عبد العزيز!!.. بل أنت عبد الشهوات.. عبد الهوىٰ...

* * *

وأشار الشيخ إلىٰ الفتية فانسحبوا إلىٰ مراصدهم علىٰ أطراف الغابة، ثم رفع قبضته المشدودة في الهواء هازاً معها ضمائر الناس..

ـ أتدرون كم هم الذين في القلعة.. أتعلمون عدد من يسومونكم سوء العذاب.. كم!!.. لقد بقي منهم الآن ما يقارب الثلاثمائة، أكثر من نصفهم من أبناء القرية.. لكنهم أبناء عاقون...

المشكلة ليست الغرباء.. بل المشكلة هي نحن.. المشكلة فينا.. ولو وعىٰ اولئك الذين باعوا أنفسهم للشيطان والطاغية نذالتهم والدور البشع الذي يسخرون له، لما بقي هناك غرباء.. ولما بقي هناك طاغية.

اللّه ربكم يقول في كتابه الكريم؛

﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾..

وصدق اللّه ربّ العالمين، فكلهم سواء.. كلهم يقفون في صف واحد ضدكم.. وأنتم الصف المقابل، ولكن لماذا أنتم ذلك الصف الضعيف؟!!.. لماذا؟!!!.. أتعلمون كم أنتم؟.. أتعلمون كم رجلاً فيكم؟!.. أتعلمون كم امرأة تمتلك الفعالية والقدرة بينكم؟!..

إنكم البحر.. وهم أحقر من ساقية.. ولن تبتلع ساقية بحراً.

ولكنكم كمٌ.. أعداد.. أنتم كائنات مترهلة.. رضيت أن تكون قطيعاً من السوائم...

أكثركم يملك من الحيوانات أضعاف عدد أسرته ولكن تلك الحيوانات علىٰ أعدادها الوافرة ما انتفضت يوماً متظلمة من تسخيركم إيّاها.. لماذا؟... لأنها أعداد.. لأنها قطيع.. فافهموا يا من خلقتم لتكونوا بشراً...

وهنا بدأ شيء غريب يتقد في البحر.. شعور يحمل كل معنىٰ الجِّدة.. إذ أخذت الثقة.. الثقة بأبي الليث.. الثقة بالذات وأخوة العقيدة تنبض في عروق طالما افتقدتها...

فالمخرج موجود إذاً.. وها هو أبو الليث يحرضهم ويدلهم علىٰ الدرب ليسلكوه.. فلا بد أن نهجاً ما سيبزغ بينهم... فهل يكون ذلك السبيل الذي قدمه أبو الليث أمامهم؟؟؟...

أكب عبد العزيز علىٰ قدمي أبي الليث يقبلها، ويردد ناشجاً:

ـ اغفر لي يا سيدي.. اغفر لي...

فهز الشيخ معنفاً:..

ـ اغفر لي؟!!.. واستغفر اللّه؟!!.. كلمتان

سهلتان.. إيه؟!.. أهكذا تحسب الأمر إذاً.. كلمات تلوكها باللسان!!!.. عندما فرطتم.. فرطتم بأعمالكم وتريدون أن تتوبوا الآن بأقوالكم؟!!.. هيهات.. هيهات..

إن أردت أن تتوب فها هي الأيام أمامك.. فعش ما تبقىٰ لك رجلاً.. أو مت رجلاً... إذهب، فسيحكم اللّه علىٰ صدق توبتك...

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّىٰ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

سورة الحشر. آية(١٤).

obeikandl.com

obeikandl.com

ركض أحد الفتية المكلفين بالرصد.. صائحاً:

ــ أبا الليث إن الجنود يسوقون ماشية القرية معهم بعدما أضرموا النيران في البيوت والحظائر...

هبّ الناس... أيسوقون الماشية؟!.. أغنامنا؟!.. أبقارنا؟!.. ثيران الحراثة؟!.. ويحرقون بيوتنا البيضاء الحجرية التي بناها الأجداد منذ عشرات السنين؟!... حقاً.. ماذا بقي إذاً!!!.. آه.. إنها القاصمة.. لقد انتهىٰ كل شيء...

انتصب أبو الليث صامتاً.. لم ينبس ببنت شفة.. هادىء الملامح وكأن ما وقع لم يفاجئه.. وراح يرقب الانفعالات علىٰ الوجوه والحركات الخائرة والهمسات الحائرة..

تطلع عبد العزيز إليه يرجوه أن يتكلم.. أن يأمر.. أن يقول لهم ما يجب أن يفعلوه، واتجه الكل إليه..

ــ مال لم يجد من يحرسه، وعدو متربص شره يود انتزاع حتىٰ أرواحنا منا.. فماذا كنتم تتوقعون؟.. أن

تتنزل ملائكة ربي فتحميه لكم وأنتم مستلقون علىٰ الأعشاب وتستروحون في الظلال؟!..

وها قد فرطتم بالبقية الباقية من أموالكم وميراث أجدادكم.. ذهبت المواشي واحترقت المنازل، فماذا تنتظرون؟؟.. أو تظنون أن الطاغية سيتورع عن حرق الغابة وأنتم فيها؟؟!!...

فقال عبد العزيز بلهجة تنم عن صدقٍ..

ــ سيدي مرنا فنلبي..

ــ احترقت مؤن الطاغية ودمرت مخازنه.. وحاجته للقطعان هي حاجته للحياة، أفنتركها له يستمد منها القوة ونُحرم نحن منها؟!

فتعالت الهمسات مجيبة..

ــ لا.. لا..

ثم صرخ أحدهم متأججاً بالاندفاع:

ــ فلنهاجم الجند الذين يسوقون القطعان.. فإما أن نستردها أو فلنقتلها..

وهاجت الجموع بالصياح مؤيدة الفكرة.. فابتسم أبو الليث مشفقاً...

ــ تهاجمون حارس القطعان؟!.. وبماذا يا ولدي؟!.. أبالحجارة؟!.. أم بالعصي؟!..

ثم التفت إلىٰ الكشاف..

ــ وكم عددهم يا منتصر؟

ــ إنهم أكثر من مئتي فارس، مدججين بالسلاح.. ثم إنهم يسلكون طريق الحقول...

وعاد أبو الليث بوجهه إلىٰ الجمع.. باسطاً كفه لهم:

ــ أسمعتم أكثر من مئتي فارس مدججين بالسلاح.. إنهم جند مدربون حنكتهم المعارك والغارات.. ففي كل غارة عليكم كانوا يكسبون خبرة جديدة بينما بالنسبة لكم مناسبات للتمرن علىٰ الجري الطويل...

ثم أخذت لهجته لكنة التوبيخ:..

ــ وأنتم.. منذ متىٰ لم تلامس أكفكم سيفاً أو قوساً.. ومن نافلة القول أن أذكركم أن أحداً منكم لا يحمل معه قطعة سلاح.. وماذا تعرفون عن القتال؟؟.. أتحسبونه سهرة سمر ورقص ومواويل كالتي تجيدونها بشكل رائع!!.. إنه التدافع علىٰ حافة الموت إما أن ترمي عدوك في هاويته أو تسقط وتنتهي... ثم إنهم يسلكون طريق الحقول فلا مجال لمباغتتهم، لأن السهل سيكشف لهم كل تحرك، فيأخذون أهبتهم إذ لا أحراش هناك تخفيكم..

هرش الرجال رؤوسهم خائبين، وعاد سؤال عبد العزيز يلح..

ـ يا سيدي منك الأمر وعلينا الطاعة.

ـ يا أم الليث اعطه حفنة من السم الأسود.

تقدم عبد العزيز وأخذ من يد أم الليث صرة ملفوفة، ثم تطلع إلىٰ أبي الليث مستفهماً... فأوضح له الإمام الأمر...

ـ اختر ثلاثة من الرجال، وتسلحوا بما تقدرون عليه، وسيرافقكم منتصر إلىٰ طرف الغابة ليدلكم علىٰ فوهة مموهة لنهر جوفي يجري إلىٰ داخل القلعة حيث تسقىٰ الدواب من مائه.. فليدخل أحدكم في مجرىٰ النهر حتىٰ يجتاز أسوار القلعة ثم ليتسلل في ظلام الليل إلىٰ حظائر الماشية والخيل وليمزج السم بالعلف ولينتبه فالسم في غاية القوة فلا يدع شيء منه يقع في الماء فنحن لا نريد قتل من قد يشرب أو يستعمل ماء النهر..

تمتم عبد العزيز:

ـ وعندها سيفقد الطاغية خيوله، وقطعانه، وسيموت قطيعنا ونحرمه أن يتقوىٰ به علينا.. ولنر كيف سيتدبر أمره بعدها.

* * *

وقبل ان يودعهم منتصر ليعود إلىٰ مرصده أشار إلىٰ الفوهة مشجعاً..

ــ لا تخشوا التسمم.. ففي مجرىٰ النهر متسع.. ولطالما دربنا أبو الليث أن نتسلل عبره إلىٰ القلعة نرقب أحوالها ونستولي علىٰ ما تصل إليه أيدينا من السلاح..

نظر الرجال إليه مشدوهين.. ثم انسل عبد العزيز في الفوهة... بينما اختفىٰ الآخرون في الأحراش القريبة تحسباً للطوازىء ولحمايته عند الحاجة.

* * *

اكفهر وجه الطاغية غير مصدق، ورمىٰ القدح من يده زاعقاً..

ــ ويلك.. ماذا تقول!!.. كل دواب القلعة نفقت!!.. كيف؟؟.. ومتىٰ؟؟...

ثم أسرع إلىٰ النافذة المطلة علىٰ باحة القلعة، طاش صوابه. الأغنام.. الأبقار.. الأحصنة.. تتلوىٰ علىٰ الأرض مهتاجة، ترمح بقوائمها بين الحين والحين.. والزبد الكثيف يسيل علىٰ أشداقها...

فصرخ بعصبية في الجند الحائرين...

ـ أنقذوا الخيل.. الخيل.. أنقذوا الماشية...
سأضرب أعناقكم أيها الحمقىٰ إن نفقت...

وقفز درجات السلم الحجري، وركض إلىٰ الباحة نافر العروق... و.. ووقف هو الأخر حائراً.. فماذا بإمكانه أن يفعل هو الآخر فضلاً عن (الحمقىٰ) لعشرات الحيوانات التي همدت.. ولعشرات غيرها تنسل منها نسمات الحياة بعنف؟؟..

اندفع مصعوقاً إلىٰ الحظائر واحدة واحدة، والمشهد واحد، والأمر واحد...

أمسك بتلابيب رئيس الحرس الجديد، وشدد قبضته علىٰ رقبته وهو يصرّ كالأفعىٰ.. وقد غارت ذات المقدم المرتجف رعباً..

ـ أتفهم معنىٰ هذا!!.. أتفهم ماذا يعني أن تحترق الغلال.. وتدمر مخازن الطعام.. وتسمم الخيل.. وتنفق الماشية مسممة هي الأخرىٰ..!!؟؟

هذا يعني أن القلعة ستصبح عاجلاً أم آجلاً صحراء.. أسمعت صحراء.. ولم يعد لدينا سوىٰ الماء نشرب منه... ولم يعد لدينا ـ ويا لحراجة وضعنا ـ حتىٰ ظهوراً نهرب عليها من هذا الجحيم..

ولكن من؟!.. وكيف تم هذا؟!..

سأجن إن لم أعرف.. أهناك خونة بيننا؟!.. من يعلم.. من يعلم؟؟؟

وفي تلك الأثناء أزّت في سماء القلعة بضعة سهام وتناثرت في أرجاء الباحة.. بعضها استقر علىٰ الأرض، وبعضها انغرست نصاله في الجدران والأبواب...

ـ اللعنة!.. إنها تحمل أوراقاً!!.. إنها رسائل!!!

وتراكض الجنود إلىٰ السهام.. يقرؤون الأوراق بلهفة وفضول.. وشد الطاغية هو الأخر سهماً كان قد استقر في باب الحظيرة قريباً منه.. وفتح الرسالة مضطرباً...

«بسم اللّه ناصر المؤمنين..

بسم اللّه قاصم الطغاة والمتجبرين..

وصلىٰ اللّه وسلم علىٰ القائل «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

أما بعد:

فيقول ربنا جلّ وعلا في كتابه العظيم:

«ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن اللّه لا يهدي القوم الظالمين»..

ويقول رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم:

«من كثر سواد قوم فإنه منهم»

ويقول صلىٰ اللّه عليه وسلم:

«من حمل علينا السلاح فليس منا»

وقال صلوات اللّه عليه وسلامه:

المرعبون في النار»

ونحن أهل القرية استهداءً بهدي اللّه ورسوله نبرأ ممن والىٰ الطاغية وكثر أعداده وسواده، وأعانه علىٰ إخافة أهله وعشيرته، ونبشره ـ إن لم يتب ـ بعذاب النار الرهيب المستديم. . .

ونعلن أننا سنعتبر كل من شهر سلاحاً علينا خارجاً عنا، ومنسلخاً منا. . وليس له عندنا إلا ما يستحقه من يقف أثناء المعركة علىٰ الجانب المقابل من الخندق. . .

وقد أخبر اللّه تعالىٰ نبيه نوحاً عليه السلام عن ابنه عندما تخلف عن اللحاق بركب الايمان والانضواء تحت راية الاسلام بقوله تبارك وتعالىٰ:

«إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح»

وقد قتل أبو عبيدة رضي اللّه عنه أباه حين وقف في صف الطغيان، وشهر سيفه في وجه الحق والايمان. .

وهذا الصديّق رضي اللّه عنه يقسم أنه كان قاتلاً ابنه وفلذة كبده لو استطاع، وذلك قبل أن يتوب ابنه رضي اللّه عنه ويدخل في معسكر الاسلام. .

ألا فلتعلموا اليوم أن هناك معسكران يصطرعان.. أحدهما القلعة، معسكر الطغيان والفساد...

* * *

وهذه دعوتنا إليكم.. توبوا إلىٰ رشدكم، وانحازوا إلىٰ فئتكم، ولا تكونوا سيفاً بيد الباطل علىٰ دينكم وأهل عقيدتكم.. وإلا... فأعيدوا قراءة بلاغنا إليكم مرة أخرىٰ لتفهموا، هذا إن كنتم تستطيعون فهماً!!

* * *

وقد قال العليّ الحاكم مالك الملك جلّ جلاله في كتابه المبين:

«وذكر فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين»

وقال تعالىٰ:

«فذكر إن نفعت الذكرىٰ، سيذكر من يخشىٰ، ويتجنبها الأشقىٰ الذي يصلىٰ النار الكبرىٰ، ثم لا يموت فيها ولا يحيىٰ»

والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ»

جمدت سحنة الطاغية وتلبد وجهه بالخوف.. فمزق الورقة متغيظاً هامساً وهو ينفث سماً..

ــ يجب أن ألقنهم درساً...

وصاح في مقدم جنده:

ـ اختر عشرين كلباً من أقوى جند الأهلين وجردهم.. ثم علقوهم علىٰ حلقات الجدران.. هيا أسرع..

ثم همس في نفسه.. فلأربيّن الآخرين بهم.. ولأطيرّن الفتنة والتذبذب من رؤوسهم....

* * *

دخلت سهاد إلىٰ مقصورة أمها باشة.. نظرت أمها إليها ثم رفعت قدح الخمرة إلىٰ فمها وغبته مرة واحدة!..

جلست الفتاة بجانبها، ومسحت بكفها الصغيرة جبهة الأم مشفقة..

ـ لم تفعلين بنفسك هكذا يا أمي!!.. إنك تؤذين صحتك يا حبيبتي...

حركت الأم نظرة، كسيرة.. ثم تمتمت بوهن..

ـ أريد أن أدفن نفسي يا ابنتي.. أنا أسكر لعلي أنسىٰ.. آه.. ليتني أنسىٰ.. أنسىٰ حتىٰ أني موجودة...

طوقت سهاد رأس أمها، وأسندت خدها علىٰ الرأس

المتعب.. فهمست الأم ودمعة ثقيلة تنساب ببطء علىٰ الوجنة الكئيبة...

ـ إنني غارقة في المهانة يا ابنتي.. فانتبهي!.. أخشىٰ أن ألوثك...

ثم بكت دون صوت.. ثم بكت دون ارتعاش، فقط.. انفجرت نفسها من الداخل فانطلقت دموعها بعفوية.. انسفحت دموعها بعفوية...

ـ اغفري لي يا ابنتي.. فأنا مغلوبة علىٰ أمري، وأنت همي الوحيد الأن.. أنا لست مشغولة علىٰ نفسي ولكن عليك.. فقد لاحظت اللص يحوم بأنفه حولك!!...

أمسكت الفتاة بكفيها رأس أمها وركزت عينيها في عينيها.. وأسرت لها بتأكيد حازم..

ـ لن يكون هذا.. أقسم لك لن يكون هذا.. وسيزول الظلم.. خذي.. خذي واقرأي يا حبيبتي.. فها قد بدأت نهاية الظالم..

ثم سحبت سهاد من بين طيات ثوبها أحد تلك الرسائل التي حملها السهام من الجانب الآخر للسور.. وفردتها أمام أمها.. أجالت الأم علىٰ الورقة عينين غشتاهما الخمرة.. ثم ارتدت ببصرها متعبة إلىٰ الوجه الفتي...

ـ أنا سأقرأ لك.. اسمعي يا أمي...

وتذكرت سهاد شيئاً.. فتلفتت حولها. ثم قامت فأحكمت اغلاق الباب، وأسدلت الستور.. ثم عادت إلىٰ جانب أمها المنزوية في بؤسها.. رمقتها الفتاة بحب، ثم قالت بصوت خفيض..

ـ الآن اسمعي يا حبيبتي...

وقرأت سهاد علىٰ أمها الرسالة الطائرة.. وهي ترقب انفعالاتها بعد كل فقرة... ولما أنهت القراءة أخفت الرسالة في طيات ثوبها، ونظرت إلى أمها والأمل يلمع علىٰ جبهتها...

توقفت القدح في يد الأم أمام شفتيها.. وتسمرت علىٰ وضعها تخدش بنظراتها الشاردة الجدران...

فهزت الفتاة كتف الأم تستحثها..

ـ ما رأيك يا أمي؟.. لن يطول شقاؤنا.. ويجب أن ننحاز وألا نضيع الوقت سدى...

وجاءها الصدىٰ كئيباً..

ـ أنت متعجلة يا سهاد... أنسيت من هو أبيك؟!.. هه.. أو نسيت ما نكب أبوك القرية به؟!..

ـ ولكننا منهم.. ما زال بيتنا هناك في القرية!!

ـ نعم لنا بيت في القرية.. ولكن هناك في القرية

عشرات البيوت التي أحرقها أبوك إرضاءً لسيده.. وهناك في القرية أيضاً حكايات أشبه بالأساطير عن مآثر رجال سعىٰ أبوك لقتلهم لأنهم فكروا يوماً أن يكونوا أحراراً.. وهناك أيضاً في القرية....

وهنا طفح وجهها بمزيج من القرف والخجل من جرائم ذلك الرجل.. زوجها.. وهي تردف منفعلة...

ــ في القرية يا ابنتي رجال هُشمت كرامتهم، وكان أبوك الأداة!... أولئك العذارىٰ.. العذارىٰ البريئات اللواتي ساقهن هو بحد السيف ووطأة سفك الدماء وسفح طهرهن علىٰ قدمي الخنزير وزبانيته...

ثم قذفت قدحاً جديداً طافحاً من الخمرة في جوفها.. فخيل لسهاد أنها حركة تشبه الاصرار علىٰ الانتحار.. وتمتمت ساخرة..

ــ هيه.. كل هذا ثم تقولين نحن منهم؟!!!...

ارتفعت سخونة لهجة سهاد وداخلتها الحدة..

ــ ما تقولينه حق.. ولكن المجرم هو أبي.. وقد صفوا حسابهم معه وقتلوه.. ولست حاقدة عليهم.. ولست نادمة عليه.. ولن أتحمل آثامه أبداً.. أسمعت لن أتحمل آثام أحد أبداً.. أبداً..

فأجابت الأم بهدوء وضعف أنب سهاد علىٰ حدتها..

ـ ولوددت لو كان ذلك علىٰ يدي أنا.. ليتني قتلته منذ أول ليلة آوىٰ فيها ذلك الخنزير في حقله.. يوم أتانا هذا (الملك) لصاً يقود عصابة من السفاكين النهابين السفاحين... ليتني قتلته يومها..

فهتفت سهاد وهي تلثم كفي أمها المتغيّمة...

ـ أماه رفقاً بنفسك.. أما أنا فقد حزمت أمري.. وأبداً لن ينسحب إجرامه عليّ...

ثم أردفت وهي تركض ببصرها عبر النافذة الضيقة إلىٰ الغابة وقد اكتست اصراراً..

ـ إن لم أستطع أن أحيا كريمة فسأموت أبية.. ولكن لن أسلم نفسي وروحي للخنازير يدنسونهما.

وهنا ارتعش قلب الأم البائسة وخفق مضطرباً بعنف..

* * *

صعد الطاغية فوق صور القلعة، مشرفاً من هناك علىٰ الباحة الداخلية للقلعة حيث تجمع الجند واجمين ينظرون إلىٰ أقوىٰ عشرين جندياً من الجنود الأهليين وقد عرّوا من ثيابهم زيادة في الإذلال، وعلقوا من معاصمهم إلىٰ حلقات حديدية مرتفعة مثبتة في جدار القلعة

الشرقي، فتدلت أجسامهم دون أن تلامس أقدامهم الأرض..

وبعد أن يئست الكتل العضلية من المقاومة تمددت مدلاة خامدة وقد التصقت الوجوه والصدور بالحجارة السوداء الباردة..

تلفت الطاغية معجباً بسطوته، وكل من في القلعة واجم صامت يرهف بسمعه منتظرا كلماته العظيمة!!

ـ أحضروها وابنتها..

فهم مقصده، فتراكض بعض مرافقيه وأخبروا المرأتين أن سيدهما بانتظارهما علىٰ السور.. فلبتا متلكئتين علىٰ كره منهما..

نظر الطاغية القذر إلىٰ سهاد بشرهٍ وهو يتنفس منتفشاً ثم صرخ بتعاظم:

ـ هيا وليتقدم عبثرون آخرون ويمرنوا أسواطهم علىٰ هؤلاء الكلاب الخونة..

كان الجميع يعرفون أن هؤلاء (الكلاب الخونة) لا كانوا خونة.. ولا فكروا يوماً بخيانة أو سواها.. بل لم يفكروا قطعاً بأي شيء.. بل إن المرء ليجزم أنهم لا يملكون فكراً.. وجربوا يوماً أن يفكروا.. فقد أمضوا حياتهم فعلاً.. ليس ككلاب بل كانوا كلاباً حقيقة لا

مجازاً.. ولكنهم كلاب أمينة أمينة تماماً لسيدها وولي نعمتها عضت بكلبها حتىٰ اولئك المساكين الذين أنجبوهم..

كانوا كلاباً لا تعرف إلا خدمة (السيد المتصرف) وأكل بعض فتات موائده.. وربما أصاب أحدهم في بعض الغارات علىٰ القرية.. قريتهم متعاً أخرىٰ!.. وهذا كل شيء.. بل إنهم أكثر أمانة لسيدهم الطاغية من الكلاب لأصحابها... ولكن ما دام (الملك) قال إنهم خونة.. فإنهم خونة.. ويستحقوا حتىٰ الموت...

وبدأ استعراض التعذيب.. عشرون ثوراً تنهش بسياطها أجساد ثيران مثلها.. وكلما كلّت سواعد عشرين ثور خلفتها سواعد متحمسة لتثبت للسيد الفرد أنها عند حسن ظنه وطوع بنانه..

والطاغية يقهقه منشرحاً، وكأن كل مشاكله قد حُلّت بصبه جام غضبه علىٰ بعض من خدموه بإخلاص ودون تذمرٍ كإخلاص الحذاء للقدم التي تحتذيه وتدوسه وتدوس به.

وراح الامتعاض بتعاظم في نفس المرأتين وظلال حديثهما القريب تنسحب عليهما حقداً وتذمراً من استبداد لص يقود عصابة من السفاكين النهابين السفاحين..

تمعنت سهاد في وجوه الجند.. واستطاعت أن تلمح سماً يتخفىٰ وراء أقنعة هشة ولكنها كثيفة.. سماً يقطر من صدور ألهبها الحقد والبغض...

وتساءلت سهاد.. ترىٰ ما أثر الكتب الطائرة في تلك النفوس وهل استطاعت أن تقدح الشرر؟؟!!.. تراها هل استطاعت؟؟؟

وتلاقت نظراتها بعيني زايد.. ابن القرية خادم السلطان.. كانت نظراته خجلة مسحوقة، وتعابيره تستمحيها عذراً.. فتداعىٰ إلىٰ رأسيهما معاً حديث طالما تكرر بينهما...

ـ سهاد إني أحبك..

ـ .....

ـ إنك تعذبينني.. لم لا تتكلمين.. أتكرهينني؟

ـ عندما كنت ألمحك بين صحبك من الجند، وأراهم كيف يتحلقون حولك وأنت تسير بينهم مختالاً.. كنت أقول لنفسي.. لا بد من أنه شيء ما..

ـ وبعد؟.. أغيرت ظنك بي؟

ـ لا.. إنك فعلاً شيء ما.. فأنت قوي. متين العضلات..

وهنا نذكر خيلاءه عندما سمعها تصف قوته..

فابتسمت وهي تتذكره كيف خنس عندما بان له مقصدها...

ـ ولكن الأكيد أن أي ثور أقوىٰ منك..

وتراءت له صعقته وقد قارنته من يحبها بثور!!.. بل أحس أن الصعقة تسرىٰ الآن في كيانه وكأن حديثهما يتم الآن في تلك اللحظة بالذات...

ـ ولكنك قطعاً قادر أن تقود مئة ثور.. بل وأكثر... نظر إليها مبحلقاً.. ثم ماذا مع هذه الفتاة الصعبة...

ـ طبعاً إنك توافقني!.. إيش ألا تستطيع قيادة مئة ثور؟؟ أجبرته نظراتها أن يهز رأسه بالايجاب.. متردداً...

ولمع في مخيلته بوارق الذكاء وهي تشع من العينين الوامضتين..

ـ أتعرف يا زايد لماذا أنت الضعيف جداً بالمقارنة مع مئة ثور، قادر رغم ذلك علىٰ قيادتها؟.. لأنها قوية.. قوية فقط.. ولكنها لا تحمل أهدافها الخاصة، فلا آمال سامية لديها تسعىٰ لتحقيقها.. فهي اللهم إن تمنت فلن تتجاوز أمانيها بمزوداً من شعير أو عشب تحشي

بـه أمعـاءهـا . . وإن اشتطـت فـي أمـانيهـا فـإلـىٰ أنثـىٰ تسافدها . .

وأنت يا زايد هكذا . . قوي ولكن قوتك ليست لك . . أنت كالثور القوي . . تختال مزهواً بقوتك ولكنك أداة . . أداة مسخـرة . . أنـت تعمـل لغيـرك بمـا يمـلأ بطنك . . وببعض المظاهر التي ترهب بها من هم دونك . . ثم هـا أنـت تحـوم حـولـي . . تحـوم حـول أنثىٰ . . . أرأيت يا زايد . . أنت والثور سواء . .

ــ سهاد أنت تقسين عليّ . . وأنا الذي تصورت أنك تحب . . . . .

ــ لا . . لا يا زايد . . إن أنا أحببت فسأحب رجلاً . . سأحب انساناً يعرف ما يريد، ويسعىٰ لتكون قناعاته حقيقة تزدهر علىٰ أرض الواقع . .

ــ سهـاد لنتـزوج ولـن أكـون إلا كمـا تـريـديـن . . . صدقيني . .

ــ مسكين . . أنت مسكين يا زايد . . حتىٰ الثيرانُ تبصـر . . أمـا أنـت فـلا تـرىٰ حتـىٰ مـا يحـدث تحـت أنفك . . .

وعلت نبرتها وهي تعنفه بقسوة . .

ــ أما ترىٰ سائسك وراعي قطيعك أيها الثور . . داساً

أنفه في كل شأن من شؤوني.. يرتقب بجشع اليوم الذي يأمر فأقدم له علىٰ صحن من ذهب؟!!

ــ سهاد لنهرب ونتزوج.. وسأجعلك أسعد امرأة في الحياة..

ــ أبداً يا زايد.. أبداً.. إما أن أعيش كريمة في قريتي وبيت أجدادي وإلا فلا.. رلن أكون سعيدة إلا عندما يزول الظلم عن كل أهلنا.. أسمعت إن كنت تريدني سعيدة فليزل الظلم عن أهلنا...

ــ ولكن الظلم سببه الظالم!

ــ فلينته الظالم.. أسمعت هذا كل شيء.. وهذا ما عندي.. فاختر ما تشاء..

ــ أختار؟!.. لقد استقر رأي.. سأقتله.. أقسم لك يا سهاد سأقتله.. ولن أكون ثوراً بعد اليوم..

ــ حسناً.. سأنتظر وأرىٰ.. وإلىٰ ذلك الحين سأقول لك وداعاً.. وداعاً يازايد..

ومر خيالها أمامه وهي تمضي دون أن تودعه ولو بنظرة.. كم كانت حازمة يومها.. لقد أرادته إنساناً، كم من الأيام مضت علىٰ ذلك الوعد المؤجل.. همس في سره.. ليتك تعلمين يا سهاد أن الوقت لم يكن يذهب عبثاً.. وإن غداً لناظره لقريب..

وهنا تساقطت نظرات سهاد وزايد فزعة عندما اقترب الطاغية من سهاد مادّاً يده ليطوقها، وقد أسكر طبعه الشاذ أصوات التعذيب الرهيبة، وأجساد عشرين رجلاً اهترأت لحوم ظهورها تحت وطأة السياط النشطة ذات النهايات المضفورة والمعقدة..

كان الطاغية يقهقه وهو يمد يده نحو سهاد علىٰ مرأىٰ الجند كلهم، نبضت قلوب الجند الأهليين بالقلق علىٰ تلك الوداعة البريئة التي ألفوها طفلة ترعرعت بينهم، فكانت الزهرة الندية الفريدة في تلك القلعة العابقة بالعفن.. وكانت طهارتها بالنسبة لهم ترمز إلىٰ بقية فضيلة في هذا العالم المخمور، كانت الفضيلة بالنسبة لهم متجسدة في طفلة كبرت ونضجت دون أن يرىٰ أحدهم فيها إلا تلك الوداعة البريئة..

وفجأة انفجرت ضحكات سهاد مجلجلة.. وهي تضحك وتضحك حتىٰ طفرت الدموع من عينيها.. فتأججت النيران في أحشاء الطاغية مبتهجة إذ توقع أنها ستمانع وتتأبىٰ علىٰ محاولاته لما كان يلحظ من شموخها وإبائها.. ولكن من التي ترفض ملكاً مثله ذا قوة وسطوة.. كم كانت تخيلاته ساذجة.. فتاة قروية.. والدها كلب صيده، وأمها فأرة مخدعه.. تتأبىٰ

عليه!!.. وها هي تتهلل بل تنفجر سعادة لمجرد أن مد يده الملكية نحوها...

ووسط الضحكات الصاخبة مدت سهاد يدها إلىٰ دبوس ذهبي طويل تجمع به شعرها، وسحبته فانتثرت خصلات الشعر توشح رقبتها وكتفيها.. واستمرت تضحك وأحس الجند الأهليين لضحكها الغريب مرارة تقبض الصدور...

أمسكت برأس الدبوس الذهبي واقتربت مواجهة للطاغية وقد غارت الضحكات المجنونة فجأة كما بدأت فجأة، وهي تصيح بضراوة:..

ـ أبداً لن يكون هذا.. أبداً لن يكون هذا..

وبخفة غرست الدبوس حتىٰ نهايته في العين اليمنىٰ للطاغية ثم تراجعت مستوفزة بحذر..

تململ الجند الأهليون خوفاً عليها.. وعلت همهمة شمطاء بين الغرباء.. وتوقفت السياط عن الحركة.. وغابت كل الأصوات في القلعة عدا زعيق مجنون كان ينطلق دون توقف من الطاغية المخبول وقد أفقده الألم الرهيب رشده.. فجمع كفيه منفعلاً ووضعهما بشدة علىٰ عينه المصابة فانغرس الدبوس أكثر.. فراح الطاغية يتخبط في آلامه كالذبيح...

هجم مقدم الحرس ليمسك بسهاد ولكنها تراجعت.. فأشهر سيفه وأهوىٰ به عليها ولكنها انسلت برشاقة فضاعت ضربته في الهواء.. لاحقها خابطاً بسيفه وقد سيطر عليه النزق وهي تقفز متفادية ضرباته بخفة يمنة ويسرة...

وخطفت نظرة سريعة إلىٰ الباحة فمسحت عيناها زايد والجند الأهليين وقد جحظت عيونهم في ذهول، فرمت بشالها الحريري الأبيض إليهم قبل أن تقفز هاربة من ضربة سيف أخرىٰ.. ولكن.. ولكن ووسط انشداه الجميع، تعثرت قدمها و... هوت من فوق السور.. وجاءت صرختها مدوية كالصاعقة وهي تهوي إلىٰ عمق الخندق المحيط بالقلعة...

ـ كونوا بشراً.. لا ثيراناً.. لا ثيراناً...

ثم همد كل شيء... فصرخ الجنود الأهليون معاً:..

ـ سهاد!

ثم ركضوا مسرعين إلىٰ بوابة القلعة ففتحوها.. واندفعوا إلىٰ حافة الخندق.. وجمدوا لاهثين!.. الصبية.. الزهرة الأبية التي سمت عن الحضيض.. الزهرة النقية التي أينعت وسط مستنقع الطحالب،

مضرجة بدمائها.. وقد تناثر الرأس اللطيف شظايا.. والتصقت نتف الدماغ اللزجة علىٰ تربة جافة متعطشة للريّ الدموي...

صرخت الأم بوحشية:

ــ سهاد مت كريمة لم يدنسك الخنازير..

واقتربت متأرجحة بفعل الخمرة من حافة السور لترىٰ ابنتها مدت رأسها أكثر.. وأكثر، ولكن تعثرت فسقطت من أعلىٰ السور إلىٰ هاوية الخندق حيث استقرت سهاد.. واختلط الجسدان وسط ذهول الجميع... وسقطت الكلمات فقد تجاوز الحدث القدرة علىٰ التعبير..

ولكن نفوساً ازداد اضطرامها.. وقبضات شدت بعزم.. وهكذا تهيأت لتحريضات زايد التي أسرها بين الجند الأهليين أرضاً خصبة...

ــ لنقسم أن ننتقم أيها الرجال.. الطاغية هو القاتل.. اغتال حتىٰ البراءة...

وامتزج الحدثان.. التعذيب البربري لأشجع عشرين رجلاً من الجند الأهليين الذي كوىٰ بلهيبه عمق الأعتزاز بين صحابتهم.. وجاء الجسدان المهشمان ليصما الطاغية وأعوانه بالدموية والخساسة..

فما أسهل أن تتجاوب النفوس الآن مع دعاء الثورة..

وخفق صدر زايد.. عهداً يا سهاد ليزولن الظلم ولينتهين الظالم، ذاك أو الموت يا سهاد.. يا حلم الصفاء...

وبوغت الجند الأهليون بأمر الطاغية أن ترجم جثتا المرأتين بالحجارة حتىٰ تدفنا تماماً..

وعندما أحس الطاغية بالهمهمة تسري بين الجند الأهليين.. أشار إلىٰ بني قومه فأحاطوا بالأهليين العزل، وقد تدججوا بأسلحتهم.. فجاء الأمر قوياً هادراً الآن وقد اطمأن إلىٰ سيوف ستضمن أن ينفذ رغم الأنوف...

ـ ارجموا اللعينتين حتىٰ تختفيا عن الأنظار إلى الأبد.. ومن لا يرمي حجراً ستقطع يده...

ومرة أخرى أطاعت الثيران سيدها.. ورضخت الجثتان حتى عجنتا كتلة واحدة قد اختلط فيها كل شيء...

ولكن الثيران أطاعت هذه المرة وهي تستشعر الاثم يخزها، وقد استولت عليها رغبة عميقة أن توجه ضرباتها إلىٰ جهة أخرىٰ.. ولكنها افتقدت هذه المرة أيضاً الشجاعة كي تفعل... ولكن هل تفعل؟..

* * *

obeikandl.com

الفصل الرابع

لا لطغيان الغرباء . .

مرة . . .

لا لطغيان ذوي القربى . .

ألف مرة . . .

obeikandl.com

obeikandl.com

اختار عبد العزيز خمسين رجلاً من أقوى شبان القرية زنداً، وأرجحهم عقلاً.. وجاء بهم إلىٰ أبي الليث كما كان قد طلب منه...

كان أبو الليث جالساً، وقد أسند ظهره إلىٰ شجرة شامخة ضخمة الجذع، وقد تحلق حوله عشرة من الأشبال في حين تخلف الأربعة الآخرون في مراصدهم، يرقبون أخبار القلعة بعدما نقلوا إلىٰ الإمام أنباء الأحداث الأخيرة فيها...

اتخذ عبد العزيز والخمسون شاباً مجالسهم بين يدي الإمام الذي رد عليهم تحيتهم بأحسن منها ثم أشار إلىٰ سعد، فراح الأخير يسرد عليهم التفاعلات المستجدة التي بدأت تعتمل في القلعة والتي أشعلتها رسالة أبي الليث الطائرة إلىٰ الجند الأهليين، وأن بوادر انشقاق راحت تستفحل بين الطاغية وأعوانه من الغرباء من جهة والجند الأهليين من الجهة الأخرىٰ، كما نقل إليهم الصدىٰ الذي تركه مقتل ابنة وزوجة (مقدم حاشية مخدع الملك) بين الجند الأهليين...

فغر الشبان أفواههم، كل هذا يجري بعيداً عنهم!!.. وهم مستلقون علىٰ العشب، أو يصطادون بعض الأرانب البرية لتطهيها النساء، أو يلتقطون بعض الثمار... في حين أن شيخاً وعدداً من الفتيان يهزون أسس القلعة من القواعد!!.. تلك القلعة التي ما ظنوا يوماً أن حجراً سيسقط منها...

تركهم أبو الليث حيناً من الوقت يفكرون فيما سمعوه، ويهضمون مضامينه،... ثم ابتدرهم قائلاً:...

ــ كما رأيتم أيها الشبان فالظلم قد اهتزت أركانه.. ورأس الطاغية أينع، فيما أنتم سادرون في غفلتكم وكأن غيركم الملدوغ، فإلىٰ متىٰ أيها الشجعان؟؟..

أليست أموالكم هي المنهوبة..؟!

أوليست بيوتكم هي التي أحرقت..؟!

أوليست رقابكم هي المستهدفة..؟!

أوليست نساؤكم هن اللواتي استبحن..؟!

فماذا بعد أيها الرجال؟!!.. وها هن النسوة يعلمنكم رفض الطغيان.. ويتقدمنكم إلىٰ صِدَامِه وتحدي استبداده.. وما نبأ عائشة عنكم ببعيد... وها هي الأخرىٰ، سهاد عصت الباغي وطعنته رغم أنها كانت بين

فكيه... وها هي زوجة الفاسق (مقدم حاشية مخدع الملك) يختارها الموت ويريحها من الاستمرار في عفن وكر الطاغية...

وأنتم يا من لكم القوة والشجاعة أما رأي لكم؟!!..

أما نفرت نفوسكم من الذل المقيم الرازح فوقكم؟!!

ومن هو الطاغية؟!.. أتشكون في أن أيّ منكم قادر إن صارعه أن يصرعه.. ومن هم اولئك الأعوان!.. وقد رأيتم كيف شرد بهم فتية ترونهم امامكم ليس لهم قوة عضلاتكم ولا ضخامة اجسامكم، ولكن لهم إيمان يعمر القلب، وعزيمة مخلصة تفل الحديد، وانصياع صارم لأوامر اللّه ورسوله وأولي الأمر من المؤمنين...

أما حنت أنفسكم أيها الرجال لحياة كريمة تودعون فيها الذل والهوان؟!.. فأين تلكم الحياة؟؟؟

ثقوا أنها لن تكون إلا في ظل حكم اللّه، فشريعة ربّ العالمين وحدها التي تضمن لكم الكرامة والصيانة.. وصدق اللّه العظيم القائل في قرآنه:

«ولقد كرمنا بني آدم..»

اللّه هو الذي كرمنا، ولن يضمن كرامتنا سوىٰ حكم ينبثق عن شرع اللّه الخبير بعباده..

ثقوا بهذا أيها الشبان إن كنتم مؤمنين.. وإيّاكم أن

تنسوا ألا كرامة لبشر بعيداً عن منهج اللّه.. وألا عزة لمن ارتضىٰ بحياة تقوم علىٰ غير ما شرع اللّه وبه أمر...

والآن احزموا أمراً.. واجمعوا رأيكم. لعل اللّه يكتب لأهليكم خيراً...

نفذ أبو الليث ببصره في الكتل القوية، وقد توهجت حماساً ورغبة صادقة في القيام بعمل ما... فأردف:

ــ لقد سلب هؤلاء الأشبال خلال الفترة الماضية من قلعة الظالم ما يكفي لتسليح خمسين مقاتلاً... ولهذا دعوتكم، فانظروا أية ثقة وضِعت فيكم، وأي أمل عُلق عليكم.. فكونوا أهلاً لهذا...

فقال عبد العزيز:

ــ مرنا يا سيدي، ولسوف ترى منا ما يغبطك...

بسط أبو الليث كفيه.. وقال مبسطاً لهم الأمور:..

ــ لنتذكر معاً واقع الأوضاع في القلعة.. لقد أتلف القسم الأعظم من الحبوب ومخزون الطعام..

وهلكت الماشية فلم يبق سوىٰ عدة خرفان وبعض الطيور..

كما نفقت خيل الجند، فما عاد لهم سوىٰ أقدامهم..

والأهم من هذا وذاك أن الثقة بينهم قد شُرخت..
وها هو الطاغية يبحث عن خونة متوهَمين في صفوفه، فيعذب البعض ليرهب الآخرين.. ويستخدم السلاح لاجبار اتباعه علىٰ تنفيذ بعض أوامره...

ثم جاء إقدام سهاد علىٰ فقىء عين الباغي، ثم الطريقة التي قتلت بها.. والأنكىٰ من ذلك الأسلوب الذي أجبر الطاغية الجند الأهليين علىٰ دفنها وأمها به، لتشعل نار الغضب إن لم نقل الثورة الكامنة...

فالطاغية يعاني الآلام الجسدية المبرحة من عينه المطعونة، ويعاني من الآلام النفسية الهائلة لرجل يغتر ببطشه وجبروته فيفقد احدىٰ عينيه وعلىٰ يد من؟!.. علىٰ يد امرأة كان يحسب أنها ستكون دمية أخرىٰ يتسلىٰ بها...

فالظرف الداخلي في القلعة مواتٍ تماماً كما ترون.. والبقية تتوقف علىٰ ماذا سيصنع الذين هم خارج القعلة.. أي أنتم..

فالقلعة فقدت توازنها الداخلي، وفقدت اكتفاءها الذاتي، فيجب أن تنطلق بقواها للخارج لتقوم بمأثرة تجمع الشمل بعد الشرخ، والأهم بل والحيوي بالنسبة لهم تأمين طعام يقيتهم.. قلعة دون طعام ودون

خيل؟!.. فهم مجبرون علىٰ الخروج.. وإن استطاعوا لرمموا أكثر ثغراتهم.. فهل تتركونهم يفعلون؟؟؟

هذا فضلاً عن الجثث التي بدأت تتفسخ وتنشر الروائح العفنة في القلعة، وما ستحدثه روائحها ومناظرها من مشاعر مثبطة وسلبية في نفوس الجند...

إنها فرصة سانحة فهل ندعها تفوتنا؟!.. ليخرج الطاغية بعدها أشد حقداً وفتكاً وتنكيلاً، ولينتقم لهزائمه ولعينه المفقوءة..

هتف أحد الشبان:

ــ لن يحول بيننا وبين طاعتك إلا الموت، نقسم لك.. إن أردت لهجمنا علىٰ القلعة بأيدينا العزلاء...

فأشار أبو الليث بيده قائلاً:..

ــ بارك الله فيكم.. ولكن مزيداً من التعقل أيها الشبان.. واجتنبوا تلك العبارات الفخمة التي علىٰ زخمها ميتة لأنها فاقدة لأية فائدة عملية..

اسمعوا.. الخطة الآن أن نضيق الخناق عليهم، ونسجنهم في قلعتهم مع الجثث المتفسخة، والجوع، والماء المسموم، والشك الذي يستشري في صفوفهم، و.. نزق الطاغية الأعور...

ثم التفت إلىٰ عصام:..

ــ وزع عليهم يا عصام القسّي. . . خذوها بارك اللّه فيكم، واكمنوا في الأجمات القريبة من بوابة القلعة، واقتلوا كل من يحاول الخروج. .

أسمعتم. . اسجنوهم في قلعتهم. . وستتحطم القلعة من الداخل بأسرع مما تتصورون. . .

واعلموا أن نبالكم صنعتها أيدي نسوة اشتقن للأمان في بيوت دافئة يبنين فيها أسراً متآلفة متكاتفة. . .

وتذكروا قبل ذهابكم أنكم تجاهدون في سبيل اللّه ولبناء حياة كريمة وأن لا كرامة لإنسان إلا في ظل الاسلام. . .

ثم طلب أبو الليث من الفتيان أن يرشدوا الشباب إلىٰ أنسب الأماكن كي يكمنوا فيها، ويرصدوا منها بوابة القلعة. . . فانطلقوا بهمة. .

واستبقىٰ أبو الليث عصاماً وسعداً وعمراً. . ولما خلا بهم أسر إليهم: . .

ــ بقي أمر أيها النسور. . ماذا تتوقعون أن يفعل الطاغية عندما سيشعر بالسكين تحز عنقه؟؟

فأجاب سعد مستغرقاً في وجه أبي الليث:

ــ سيحاول الهرب يا أبا الليث. . وقطعاً سيحاول أن يأخذ معه ما سلب القرية من أموال وذهب وحليّ. . .

بش أبو الليث: . .

ــ أحسنت يا سعد، ولكننا سددنا بوابة القلعة في وجهه، فمن أين سيهرب إذاً أيها الفتيان؟

همس عمر: . .

ــ ليس أمامه سوىٰ الممر السري الذي يصل القلعة بالكهف. .

ربت الإمام علىٰ ظهر عمر مشجعاً: . .

ــ إني أفخر بكم أيها الأبطال. . وأصارحكم أنتم وحدكم موطن أملي وثقتي. . ولنتذكر معاً. . فعندما جاء ذلك الأفاق مع عصابته وتعامل معه بعض أراذل قومنا واستطاعوا معاً التغلب علىٰ صاحب القلعة ثم دفنوه في الممر السري الذي حاول صاحب القلعة الهرب منه، وبعد أن استولىٰ الأفاق علىٰ أموال صاحب القلعة أمر بردم ذلك الممر. . . ولقد شرحت لكم هذا جيداً في جلساتنا ونزهاتنا الماضية. . أليس كذلك؟ . .

ردد سعد:

ــ نعم، ما زلنا نذكر هذا. . كما نذكر كيف اكتشفنا بعد سعي حثيث بتوجيهاتك البئر المموه في ذاك الكهف المهجور. . وكيف استطلعنا ذاك البئر واكتشفنا عندها الممر السري الجديد الذي أمر الطاغية بحفره تحسباً للطوارىء. . .

ـ هذا حق يا سعد، وأخبرتكم يومها أن الجثث التي وجدتموها في جانب البئر وفي أطراف الممر إنما هي جثث المخدوعين الذين حفروا الممر الجديد ثم قُتلوا حتىٰ يبقىٰ الممر سراً..

وهكذا فالغالب ألا أحد يعرف ذاك الممر إلا نحن الأربعة والطاغية، وربما أفراد من أقرب المقربين إليه من أعوانه الغرباء..

وأريدكم الآن أن تسرعوا إلىٰ الكهف، وترموا تلك الصخرة.. ـ التي أمضينا الأيام الكثيرة في دفعها إلىٰ جانب البئر تأهباً لهذه اللحظة ـ ارموها في البئر فتكونوا بهذا قد سددتم منفذ النجاة أمام الطاغية، ثم ترقبوا حتىٰ إذا ما سمعتم الأصوات تقترب في الممر أشعلوا تلك الأعشاب التي تعرفونها وألقوها في البئر فتتكفل الروائح القاتلة التي تنشرها بتصفية الحساب مع الطاغية ومن قد يرافقه، ثم ابتعدوا سراعاً...

فقال عصام بلمحة ذكية:..

ـ وهكذا يبقىٰ الكنز وحده بالانتظار في ذلك الممر...

فأردف أبو اللبث وقد قلص عضلات وجهه وألقىٰ بنظرة حادة إلىٰ المستقبل..

ـــ نعم وسيبقىٰ الكنز وحده بالانتظار. أبقوا هذا الأمر بينكم لأنكم ستحتاجون الكثير من المال لتحققوا ما انتدبكم اللّه إليه، وما آمنتم أنتم به.. أن تسعوا جهدكم لتخرجوا الناس كافة من عبادة البشر والهوىٰ إلىٰ عبادة اللّه وحده، ملك الناس الحق، وربهم الحق، والذي لا إله يُعبد بحق سواه...

اكتست ملامح الفتية بالإيمان، وشعت امارات التصميم والاخلاص للّه والهدف علىٰ وجوههم.. ثم انطلقوا لتنفيذ مهمتهم بقلوب خاشعة ترجو من اللّه النصرة والتوفيق، وأن يكف عنهم بأس أيدي الناس وألسنتهم، وأن يصرف عنهم الأنظار...

* * *

انتفش مقدم الحرس نافخاً صدره كالفيل، وزمجر بالجند يأمرهم بأخراج جثث الحيوانات النافقة التي أضحت بؤراً تسمم جو القلعة وتنشر فيه طعماً لزجاً خانقاً.. طعم الفناء المخيف الذي غصّ به كل من في القلعة... كما أثارت الجيف المتفسخة أسراب الذباب اللجوج، فأثار بدوره نزق الجند وأرهقهم بكره وفره ووقاحته..

كان الجند يتقيؤن وهم يسحبون الجيف إلىٰ بوابة القلعة، ثم فتحوا البوابة وأنزلوا القنطرة فوق الخندق.. ولكن ما أن وصل بعضهم إلىٰ منتصف القنطرة حتىٰ راحت النبال المسمومة تنهال عليهم بغزارة، وبلحظة ارتمت جثث خمسة من الجند صرعىٰ فوق جثث الحيوانات التي كانوا يسحبونها، وركض الباقون عائدين إلىٰ القلعة..

وعبثاً أطلق رئيس الحرس الجديد الوعيد اثر الوعيد باسم سيده المختفي.. ولما لم يجرؤ جندي واحد أن يمد رأسه خارج البوابة أمر رئيس الحرس أن يصعد الرماة إلىٰ السور ويرموا الأجمات القريبة التي تنطلق منها السهام...

فصعدوا، ورموا، ولكنهم كانوا كمن يريد اصطياد أسماك الأعماق برمي الحجارة في البحر.. فهم يرمون أشباحاً لا يرونها، فضلاً عن حرية الحركة الواسعة والمرنة المتاحة للمهاجمين المختبئين في الدغل.. والذين ما أن بدأ الرمي من القلعة حتىٰ غيروا أماكنهم وسكنوا...

وبعد مدة خيّل لرئيس الحرس أن المهاجمين قد انتهوا، أو علىٰ أقل تقدير قد هربوا، فدفع بالجند مرة

أخرىٰ لاخراج الجثث، فتقدموا مترددين، ووصلوا في هذه المرة حتىٰ نهاية القنطرة، وفجأة انثالت النبال عليهم بكثافة أشد، فاضطرب الحشد، وبدأ التراكض تحت وابل من النبال، وفي الفوضىٰ وقع بعض الجند إلىٰ قاع الخندق فتهشمت عظامهم، ومات بعضهم، وبقي أخرون مقعدين لا يستطيعون حراكاً.. أما البقية فقد هربوا فارين إلىٰ داخل القلعة، وهم يشتمون ويلعنون ويتصايحون مقسمين أن لن يخاطروا بأنفسهم مرة أخرىٰ ولو أمرهم (الملك) بنفسه...

وعاد رئيس الحرس فأمر الرماة أن يرموا من جديد، فرموا بقسيّهم حتىٰ كلت أيديهم، وكانوا متأكدين في قرارة أنفسهم.. أنهم إنما يرمون لتنفيذ الأمر والتملص من العقوبة و.. فقط، وإلا فمن أين لهم اكتشاف مكامن المهاجمين!!

ثم تخلوا عن اخراج الجثث عبر البوابة، وأخذ الجند المأمورون بشد الجثث إلىٰ السور لرميها من هناك إلىٰ الخندق، ولكن ما أن سحبوها أمتاراً قليلة علىٰ الدرج الحجري الضيق والرطب حتىٰ راح أحدهم يقيء بغزارة، وكأن امعاءه قد قلبت للخارج.. وسرت عدوىٰ التقيؤ.. وتكاثر عدد المكبلين بتشنجات امعائهم وغثيانهم..

فارتموا أرضاً وقد تملكهم الضعف والشعور باضمحلال القوىٰ.. بينما قام الآخرون بدفن الجثث في باحة القلعة وهم يتماسكون بصعوبة...

وما لم لبث الجوع والضعف والمرض أن ترعرعت بين الجنود المسجونين!

* * *

وتتالت الأسافين تفلق مجتمع القلعة، وخاصة عندما لمس الجند تحيزاً فاضحاً في توزيع حصص الطعام.. فقد اختص الطاغية وحاشيته بقطع من اللحم المسمط واللبن وبعض البيض، رغم أنهم لا يبذلون ذرة من الجهد أو العناء! بينما أولئك المسحوقون بالقذارات والعذاب والجراحات التي اثختها نبال المهاجمين نال الواحد منهم حبة من البطاطا في اليوم!!

كما لم يغب عن الجند الأهليين أن الآخرين المنحدرين و (الملك) من مستنقع واحد لم يطلب منهم جر الجثث المتفسخة، كما أن نصيب الواحد منهم من الطعام كان يعادل نصيب اثنين من الجند الأهليين..

فأخذت الأجساد المرهقة، وقد هدها التعب والضعف وانحطاط الحيوية تثرثر متذمرة.. وهكذا بدأت

عاصفة عاتية تلوح في أفق مجتمع القلعة منذرة، متوعدة.

وفي اليوم التالي كان الطاغية منزوياً في أحد أركان مخدعه وحيداً، يستعرض الوضع المنروغ منه في القلعة، وقد تيقن أن النهاية قد أزفت.. وأن البقرة المستكينة التي حلبها سنيناً قد نبتت ـ فجأة ـ لها قرون حادة...

تلمس الجلدة السوداء التي ربطت لتخفي الحفرة الشوهاء في وجهه بضيق، وهو يفكر.. إن لم تنته بقية الطعام القليلة في القلعة اليوم فستنتهي غداً.. بل ولنفرض أنها لم تنته قبل أسبوع، ولكن ماذا بعد؟.. وها هي القلعة تخنقها الشكوك والأشباح والنبال..

طرق رأي رأسه، ولكنه طرده مباشرة.. أبداً لن يكشف الممر السري لأحد، ولا حتىٰ لجلب الطعام للقلعة المحاصرة.. الممر لن يستخدم إلا لأمر واحد.. الفرار.. النجاة.. فراره ونجاته هو وحده، ولربما استعان بأخلص أعوانه ليساعده في حمل الكنز، ولكن لا.. لن يستعين بأحد.. بل سيتدبر أمره بمفرده.. سيتنكر ويهرب.. وما أسهل الهرب خاصة وأن الممر ينتهي بعيداً.. في كهف مهجور..

إذاً فقد آن لهذا الممر ـ الذي قتل كل من شارك في

بنائه أو عرف بأمره ـ أن يؤدي الخدمة الوحيدة المنتظرة منه.. أن يوفر له فرصة الفرار.. له وللكنز.. الكنز الذي أخفاه خلف الباب السري للممر، فليس عليه الآن سوىٰ أن يدلف هو الآخر إلىٰ خلف ذلك الباب، فيكون قد نجا، وانتهىٰ من كل المتاعب... وسيبدأ من جديد في منطقة أخرىٰ وسيعينه الكنز علىٰ شراء الكثير من الأعوان.. ولربما استطاع الاستيلاء علىٰ قلعة مدينة كبيرة، فتتضاعف عندها ثروته بشكل أسرع بكثير...

* * *

مضت أيام ثلاثة والأنشوطة تضغط أشد، فأشد علىٰ أنفاس القلعة..

أيام ثلاثة مرت مليئة بالمرارة والعذاب، نمت فيها روح التمرد، وكان يكفي أن يصدر أمر ما حتىٰ يهب الجنود المتململين والمتعبين لاعنين شاتمين..

ولاقت تحريضات زايد تجاوباً وقبولاً بين صفوف الجند الأهليين، وتبنىٰ رفاقه أفكاره، وراحوا يبثونها بين أقرانهم.. وبدا أن البركان سيتفجر ليجرف بقايا عهد في طريقه..

وزاد من توتر الوضع غياب (الملك) طوال تلك الفترة، في البداية لم يهتم أحد بهذا.. ولكن تجهم

رئيس الحرس وحركاته المضطربة، ومن ثم استدعاؤه أخلص أتباعه إلىٰ قاعات القلعة العليا والمقصورة عادة علىٰ حاشية الملك من المقربين، كل ذلك أثار الكثير من التساؤلات فراجت التخمينات والتعليقات الهامسة...

أما رئيس الحرس فكاد يجن.. أين ذهب الملك؟.. بل أين اختفىٰ ذاك الخائن؟... آه.. لا بد أنه هرب آخذاً معه كل ثمين القيمة خفيف الوزن، فراح هو وأعوانه كالمجانين يبحثون عن باب سري سمعوا عن وجوده نتفاً وهمسات.. ولكن أين ذلك الباب اللعين؟؟

وانتشرت الهمسات.. هرب الملك آخذاً معه كنز القلعة.. ذهب بكل شيء وتركنا للجوع والظاعون والموت...

وسنحت الفرصة.. وقد أضمر زايد ومن وافقه أمراً، واستجمعوا قواهم وشدوا إليهم أسلحتهم.. وتم كل هذا بهدوء... ولم يبق إلا اختيار حدث ما كذريعة للاطاحة بهذا الظرف الغير متوازن..

وقرر زايد أن يأخذ زمام المبادرة، فأحاط نفسه بأقوىٰ مؤيديه.. ثم جلس يترقب اللحظة المناسبة..

وجاءت تلك اللحظة، عندما نزل رئيس الحرس إلىٰ باحة القلعة عابس الوجه شاتماً محقراً كعادته، والسباب

يفيض من فمه القذر وهو يتخطىٰ الجنود المستلقين أرضاً.. وفاته أن يلحظ لمعان الحقد والنيات المبيتة علىٰ وجوه تتلمظ للدم.. كما فاته أن يلحظ القبضات المتوترة وهي تتلمس قبضات السيوف...

وكان الجنود الأهليون يرقبون زايداً.. ينتظرون إشارته.. فنهض متمهلاً واتجه نحو رئيس الحرس، ووقف في طريقه شامخاً جاف النظرات، وقد أسند يده اليمنىٰ علىٰ مقبض سيفه...

ــ ايه أيها القائد!.. إلىٰ متىٰ سيستمر هذا!؟.. الطعام سينفد، ونحن محاصرون..

ادرك رئيس الحرس دقة الموقف وقد باغته التحدي.. فقال متغاضياً عن الاستفزاز..، بعد أن بلغ ريقه..

ــ سرعان ما تنفرج الأمور.. لا تهتموا.. دعوا هذه الأمور لنا...

ــ هه سرعان ما تنفرج الأمور؟!.. متىٰ؟؟.. عندما تكتشف الباب السري وتلحق بسيدك وتقاسمه الذهب؟!!!

استشاط رئيس الحرس.. فرفع يده يريد وجه زايد.. ولكن الأخير أمسكها بقوة بيده اليسرىٰ وبلمحة استل بيمناه السيف..

ـ سخرتمونا كالثيران في خدمتكم، وجمعتم بسيوفنا ذهب أهلينا.. والآن أيها الخنزير؟!.. الآن؟!!..

جحظت عينا رئيس الحرس، وفتح فاه ليستنجد بأعوانه، ولكن بارقة السيف لم تمهله.. ففارقت روحه النتنة جسده النجس..

وكانت الشرارة.. واندفع الجنود الأهليون يعملون السيف في رقاب الغرباء الذين بهتتهم المفاجأة فتراكضوا هاربين وهم يتصايحون..

ودارت معارك صغيرة في زوايا القلعة وسقط قتلىٰ من الطرفين ولكن عدد قتلىٰ الغرباء كان راجحاً بسبب المباغتة وشعورهم بالقنوط، بعد هرب ملكهم بالكنز، كما فت عضدهم بمقتل رئيس الحرس الذي كان يعتبر أقواهم وأشدهم بطشاً...

ودخل من بقي من الغرباء احدىٰ القاعات الضخمة في الطبقة العلوية من القلعة وأزلجوا أبوابها عليهم من الداخل، وما لبث أن لحق بهم الجنود الثائرون وحاولوا أن يحطموا الأبواب العملاقة ولكن عبثاً...

وجاءهم أمر زايد أن يراقبوا أبواب القاعة ويدعوا الغرباء فيها.. وقال لجندي قريب منه بصوت عالٍ:

ـ لن يلبثوا أن يستسلموا دون أن نتعب.. فكم سيصبرون دون ماء أو طعام..

فأردف الجندي مبتهجاً:..

ـ وعندها سنقتلهم عن آخرهم ثأراً لسهاد..

فضحك زايد من سذاجته، وهمس في نفسه.. نقتلهم أيها الأحمق!!.. وأين سأجد إذن من يحمي القلعة ويجبي الأموال!!

همس بهذا ثم تلفت حوله منزعجاً لعل أحداً قد سمعه.. ثم اطمأن.. فالكل مشغولون بالهرج وصرخات الانتصار.. أو ما حسبوه انتصاراً...

* * *

obeikandl.com

الفصل الخامس

«إننا إذا حللناها ـ أي الطاقات الاجتماعية ـ إلىٰ عناصرها الأولية البسيطة نجدها تنحصر في عناصر ثلاثة: اليد، القلب، العقل. لأن كل الطاقات الاجتماعية تنطلق منها، والعملية الاجتماعية نفسها لا تخرج عن هذه العناصر الثلاث: فكل طاقة اجتماعية تصدر حتماً من دوافع القلب ومن مبررات وتوجيهات العقل ومن حركات الأعضاء، فكل نشاط اجتماعي مركب من هذه العناصر، والفاعلية تكون أقوىٰ في الوسط الذي ينتج أقوىٰ الدوافع وأقوم التوجيهات وأنشط الحركات.»

الاستاذ مالك بن نبي

كتاب تأملات

محاضرة المبررات في المجتمع

obeikandl.com

كان قد مضىٰ علىٰ الحصار نحو أسبوع عندما أقبل واحد من الشبان الذين اختارهم عبد العزيز، وهو يصيح من بعيد.. راكضاً نحو أبي الليث... ولما وصل قال لاهثاً:..

ـ لقد رفعت القلعة العلم الأبيض علىٰ البرج.. وعشرات الجنود يلوحون بالرايات البيضاء من فوق السور...

غمرت الفرحة عبد العزيز فقام طرباً وأكب علىٰ يدي أبي الليث يقبلهما مهللاً.. فسحب أبو الليث كفيه وأطرق مفكراً.. علىٰ أي ميناء سترسين يا سفينة الغضب!!

ـ سيدي لقد انتصرنا.. انهم يستسلمون...

ـ رويدك يا عبد العزيز.. ولا يستخفنك السراب...

تركهم الشاب وركض نحو القرية المنثورة علىٰ الأرض.. وهو يزعق بالخبر وببشرىٰ الرايات البيضاء..

فهب النيام مبتهجين وركضوا هازجين بحمق إلىٰ القلعة وقد اختلطت الصيحات الغبية طرباً بالفتح العظيم..

وأسرع عبد العزيز حاثاً الخطا لينظر الأمر من قريب..

وزحفت القرية برجالها.. ونسائها.. وأطفالها.. وعجائزها.. تكبر وتهلل فقد أتىٰ الغيث بعد طول انتظار!.. وتلاقوا مع الشبان الذين سلحهم أبو الليث والذين كانو يدبكون هازجين.. فقد تم النصر علىٰ أيديهم خلال بضعة أيام.. وبقليل من النبال.. فما أشجعهم وأجدرهم!!..

فتح باب القلعة ببطء، وأنزلت القنطرة.. فحبست الأنفاس مترقبة.. وما لبث أن خرج من البوابة رجل مرتدياً ثياباً بيضاء ويلوح براية بيضاء بيده..

فتعالت أهازيج الفرح والانتصار بين القرويين وتدافعوا نحو الرجل المرتدي البياض.. وهم يشهدون أمراً أغرب عندهم من الخيال.. القلعة ترفع أمامهم الرايات البيضاء!!.. وهم الذين ما حلموا يوماً أن يعيشوا يوماً خارج فكي وحش الطغيان.. السيف والابتزاز... فكيف بهم الآن والقلعة تركع وتطلب التفاوض..

ومرة أخرىٰ سرت الهمسات.. معجزة.. إنها معجزة...

فقالت أم الليث:..

ــ نعم إنها لمعجزة حققها اللّه لقرية خائرة علىٰ أيدي فتية مؤمنين، وهبوا حياتهم لدينهم وكرامة شعبهم.. وصيغت نفوسهم وآمالهم علىٰ نهج اللّه، آه منك أيتها القرية الضعيفة الذاكرة...

تلفت رسول القلعة في الحشد المتجمهر يبحث عن مركز ثقل القوم ثم صاح:..

ــ أيها الناس ألا لكم البشرىٰ اليوم.. فابن قريتكم المنحدر من أرومتكم.. الملك الملهم زايد، زاده اللّه رفعة وجاهاً قد قضىٰ علىٰ ظلم الظالمين.. ودك عرش رأس الطغاة المستكبرين.. وانتهت علىٰ يديه سطوة الغرباء الباغين وقد أمسوا بين قتيل وأسير..

وهنا أزّت زغاريد النساء، وتعالىٰ هتاف الأطفال الكبار منهم والصغار.. وتشجع بعض الغربان ناعقين:..

ــ عاش بطل القرية.. ناصر أهله.. ملكنا الجديد.. زايد.. عاش أبد الدهر حاكماً بالعدل...

فانتفش رسول القلعة بغرور وعظمة الفاتحين، وعبّ

من الهواء ما نفخ صدره بل وكاد يفجره، ثم تابع صراخه: . .

ــ ملك الملوك زايد الناطق بالصدق والحاكم بالعدل يدعو ابناءه وجهاء القرية ليتقبل منهم التهاني. .

صكت أم الليث وجهها ساخرة:

ــ زايد هذا الأمي. . تربية الأزقة. . والذي ما أكمل عقده الثالث أصبح. . ملك الملوك الناطق بالصدق الحاكم بالعدل!!!. . بل وأضحىٰ وجهاء القرية أبناءه!!. . يا لعجب الطغاة مهما تلونت لهم الرايات. . .

واشرأبت أعناق طالما عفرتها الجزمات العسكرية في التراب. . فاستكانت واستطابت المقام وأنوفها هناك بعيداً في قرار حفر الأقذار، واشرأبت اليوم لتكون في الوفد الذي سيهنىء (أبا) القرية البار. . ملك الملوك. . الناطق بالحق. . الحاكم بالعدل. . !!!

سأل عبد العزيز أبا الليث بعينين خجلتين أن يتقدم ليرأس وفد التهنئة، فزفر أبو الليث بضيق، وشبح ابتسامة صابرة يلوح علىٰ شفتيه. . فهم عبد العزيز. . فرجع أدراجه وهو يكاد يتعثر. . إذاً ليس من أجل هذا!!!. . .

ورجع إلىٰ أكوام الناهقين الهازجين بحياة سيدهم ومالكهم الجديد. . ولم تمض دقائق حتىٰ تبخرت من

ذهنه تعابير أبي الليث، وانجرف سريعاً مع التيار وتقدم وسط التصفيق ليرأس الوفد..

وتشكل الوفد.. وذهب الوفد.. وهنأ الوفد. والمهم أن هذا الوفد قد قدم مبايعته لملك الملوك الناطق بالحق الحاكم بالعدل.. وكفىٰ.

وبعد أن اختلىٰ ملك الملوك برئيس وفد المبايعين.. صدر مرسوم شاهنشاهي بتعيين (صاحب الفضل عبد العزيز المبجل) وزيراً للقلعة، ومقدماً لجند سيده ملك الملوك...

ووصلت البشائر إلىٰ القرية، وهب الرعاع يتزلفون لأسرة صاحب الفضل المبجل وزير القلعة، مقدم جند ملك الملوك..

وهكذا مضت أيام ثلاثة في مواويل وأهازيج ودبكات، قدم فيها الحمقىٰ ما تبقىٰ في منازلهم من طعام لجند ملك الملوك زايد ابتهاجاً بزوال الملك السابق...

ورفعت اللافتات فوق الدور والطاحون والمسجد بشعار واحد.. مع اختلاف بسيط في الصياغة...

«يسقط الملك... عاش ملك الملوك»

«لا للملك المخلوع.. نعم لملك الملوك المتوج»

* * *

وفي اليوم الرابع تعثرت قدم أحد القرويين ـ بينما كان يجمع بعض الثمار لإطعام أطفاله فقد ذهبت الاحتفالات بكل المؤن ـ و... كانت جثة... جثة... جثة...

لا شيء أمر بسيط وعرضي.. «عثر أحد القرويين علىٰ جثة رجل عجوز في العقد السابع من عمره.. ولدىٰ سؤال الناس عمن فقد عجوزاً.. تبين أن امرأة عجوزاً في العقد السادس من العمر كانت تبحث عن زوجها الذي هدّه الكبر وأثقلته السنون... ولدىٰ عرض الجثة عليها تعرفت فيها علىٰ جثة زوجها.. وقالت أنه إمام مسجد القرية، وأنه كان معروفاً بأبي الليث، وحرر هذا المحضر في الأسبوع الأول من العام الأول من عهد ملك الملوك زايد حفظه اللّه وأخذ من أعمار العباد وأضاف إلىٰ حياته السامية، وشهد علىٰ المحضر خمسين شاباً من ذوي العزم والقوة، واللّه شهيد علىٰ ما قلنا وقالوا.»

إذاً فقد قتل!؟.. لا.. لا.. بل مات، توفي.. ولا بد أنها وفاة طبيعية تماماً!!.. ولكنه كان رجلاً محبوباً!.. لذا وبهذه المناسبة السعيدة جداً.. عفواً.. عفواً.. وبهذه المناسبة الأليمة فقد أمر ملك الملوك زايد أن تنظم جنازة فخمة امتناناً للميت وشكراً له علىٰ

الصلوات الكثيرة التي أمّ بها في المسجد، . . لم ينسى ملك الملوك زايد أن ينيب عنه صاحب الفضل عبد العزيز المبجل في رعاية حفل . . التأبين، وهكذا كان . . .

* * *

صعد صاحب الفضل المبجل منبر مسجد القرية، ليلقي خطبة الجمعة في الأهالي . .

فترحم علىٰ أبي الليث وذكر مزقاً من مآثره، ثم بدأ الحديث يأخذ طابعاً آخر . مثلاً مما ورد في تلك الخطبة العوراء . . .

« . . إن الفضل في التفكير والتنفيذ للتخلص من الطاغية المتسلط هو لملك الملوك زايد . . الذي تعب من بطء فهم أبي الليث عليه . . وإن أبا الليث ـ رحمه اللّه وتغمده بغفرانه وعفا سبحانه وتعالىٰ عن تقصيره ـ لو نفذ بشكل دقيق ودون تلكؤ، تعليمات ملك الملوك، ولو أنه ـ تجاوز اللّه عن جشعه ـ كل ما كان يرسله إليه الناطق بالحق الحاكم بالعدل من أموال في سبيل التهيئة للانتفاضة، لعاشت القرية منذ زمن طويل في ظل الرخاء والأمن والكرامة التي سوف . . نعم سوف يغدقها ملك الملوك علىٰ القرية بفضل منه ورحمة نفعنا اللّه به . . آمين . . . »

فردد القطيع . . . آمين . . آمين . .

همس عصام وهو ينتفض غضباً

ـ كذاب . . كذاب . . لوددت أن ألقمك حجراً أيها الخائن . .

فأمسك سعد بعضد عصام وضغط عليه بعنف وأشار إليه أن يصمت ويضبط أعصابه وهو يحول عينيه بين الوجوه المتهدلة كثيران بليدة . .

* * *

وبعد صلاة الجمعة خرج الفتية المؤمنون من القرية فرادىٰ كيلا يثيروا الانتباه . . وبعد قليل اجتمعوا في موضع منعزل من الغابة، ألقوا علىٰ بعضهم السلام، ثم جلسوا في حلقة واحدة وقد ألجم الأمر الجلل أفواههم . . ولم يبد أن أحداً منهم لديه الرغبة في قول أي شيء . .

وراح كل منهم يستعرض في مخيلته شريط الأحداث منذ أن بدؤوا يلتقون بأبي الليث . . فيعون شرحه لأفكار الاسلام الصحيح، ويحلل لهم مواقف رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم . . إلىٰ أن أخذ يرافقهم في بعض الجولات المثيرة والمفيدة في الغابة . . .

ورنت في آذانهم عبارة الإمام المأثورة..

ـ أنتم أنا.. وسيستمر اسلامنا من خلالكم.. وسأستمر أنا باستمراركم علىٰ نهج ربكم...

أيها الفتيان إن المرفأ بعيد ولكن علىٰ رؤوسكم وزنودكم يتوقف الكثير...

الشخص الفرد فرد مهما عظم.. والمهم أن تجتمع العقول والقلوب والأيدي حول العقيدة، أن تقتنع عقولكم تماماً بعقيدتكم فتحبها قلوبكم أكثر من أي شيء آخر.. أكثر من الحياة نفسها، ثم أن تسعوا بجوارحكم لتشيدوها حقيقة تنبض بالحياة القوية علىٰ أرض الواقع... آهٍ يا أبنائي لوددت أن أعيش لأرىٰ ذلك اليوم معكم. ولكن لا بأس فما قد لا أراه بعيني رأسي أنا علىٰ يقين منه بعقلي وقلبي.. وثقوا أن لم يخلف اللّه وعده.. وإن تنصروا اللّه ينصركم...

رفع عمر رأسه إلىٰ شجرة شامخة باعتزاز قائلاً:

ـ أسمعتم.. لقد استغنىٰ طاغيتنا الأبيض عن النهر الجوفي الداخل إلىٰ القلعة وأمر بردمه، وهم يحفرون الآن عشرة آبار في باحة القلعة بدل البئر الوحيد الذي كان يستخدم لشرب الناس...

وأضاف رافع:

ــ نعم.. كما أنه أمر بأحراق وقطع كل تلك الأجمات المحيطة بالقلعة.. محيطاً إيّاها بمسافات واسعة من الأرض العراء.. وأستطيع أن أجزم أن معظم أهل القرية يعملون سخرة لتنفيذ أوامر المستبد الجديد...

تنفس مؤمن حانقاً وهو يقول:..

ــ والأنكىٰ من هذا أنه فرض علىٰ القرية أن تقدم له عشرين فتاة كي تدبرن أمور الطعام واللباس والنظافة في القلعة!!!

همس عصام بعصبية:

ــ ألا لعنة اللّه علىٰ الخائنين.. اسمعوا ما آمنا أنه واجب علينا السعي الجاد لتحقيقه لم يتم.. واستطاعت الجاهلية مرة أخرىٰ أن تغير ثوبها.. كالأفعىٰ تماماً.. ولكننا نعرف أنها الأفعىٰ ذاتها ما تغيرت طباعها.. ولا بد أنكم قد علمتم أن الطاغوت الأبيض قد أصدر مرسوماً بالعفو عن الغرباء المأسورين من أعوان الطاغية السابق، بل وقد رد إليهم سلاحهم وجعلهم في مقدمة جنده وحرسه الخاص...

ثم التفت إلىٰ سعد..

ــ وأنت يا سعد ما رأيك..؟

لامسى سعد بنظراته الهادئة اخوانه، ثم انسابت كلماته من عقله وقلبه مضيئة واضحة. . .

ــ نحن أربعة عشر مقابل قرية بكاملها. . وهذا أمر يجب ألا نخجل وألا نخشىٰ من مجابهته. . مات الملك، عاش ملك الملوك، مات الطاغية اللعين فلنهتف للطاغية الجديد وإلا فسيفه سيحز رقابنا!!. . أليس هذا ما يقوله الناس؟؟

وما دام الناس هكذا فماذا نتوقع؟. .

أيظن أحدنا أن خطبة نارية كافية لتقلب مفاهيم القطيع رأساً علىٰ عقب؟. . وتفجر طاقاتهم لبناء حكم اللّه في الأرض؟. .

إنني متأكد أن لا أحد فينا يتوهم هذا، أو ينظر للأمور بمثل هذا التبسيط الساذج. .

ثم صمت. وصمتوا، وراحت الأفكار تضطرم في رؤوسهم، نعم إن كلامه حق، وهذا ما كدّ أبو الليث ليعلمهم إيّاه. .

قطع عصام الصمت مؤكداً اقتناعه برأي سعد، ثم اقترح علىٰ اخوانه أن يختاروا أميراً لهم. .

وسرعان ما انتخب سعد أميراً، وقبل أن يطلب سعد منهم الانفضاض إلىٰ مرة قادمة، سأله أحدهم: . .

ـ أيها الأمير.. أنكسر قسيّنا؟

ـ إيّاكم ثم إيّاكم.. ادفنوها قريبة منكم.. وإيّاكم أن تنسوا الرمي أو تهملوا الاعداد له.. ولكن إلىٰ أن تحين المعركة لننطلق نحو القرية.. ولنتوجه إلىٰ تلك الرؤوس الفارغة المظلمة فنملؤها بالحق، ونضيؤها بنور المعرفة.. ومتىٰ آمنت العقول استجابت القلوب وعندها ستصبح السواعد معنا...

نحن الآن أربعة عشر، فلنجاهد ليصبح كل منا قائداً لأربعة عشر آخرين...

وهذا لا يكفي إن لم نعرّف كل من نعرفه علىٰ الحق ومضامين العقيدة ومراميها، هذه العقيدة التي ما تزال بعض الخيوط تشدهم إليها...

وعندما تمتد، وترسخ جذورنا في العقول وتميل إلىٰ قضيتنا القلوب وتسخر القبضات لتحقيق أهدافنا، عندها لن يكون هناك من ثغرة ينفذ منها طاغية آخر...

ويا اخواني لم يمض شهر بعد علىٰ حكم الطاغية الأبيض حتىٰ بدأت عوراته تنكشف للناس.. وإن عرفنا كيف نستغل مثالبه ونفضحها أمام الناس فسرعان ما تحتدم النقمة علىٰ ظلمه ولكن نكون أيضاً مشينا نصف الطريق وبقيت البوابة مفتوحة أمام طاغية آخر ليجرب

حظه، ولن يكتمل طريقنا ما لم نقدم لهؤلاء الناس بديلاً يقنعهم بكفايته وعدالته وسموه ولا شيء يحقق العدالة والكرامة سوىٰ اسلامنا فلنوضح لهم ذلك ونناقشهم فيه إلىٰ أن يقتنعوا به ويصبوا طاقاتهم لخدمته وتحقيقه في حياتهم..

فهيا ولنسرع ولا نألوا جهداً في التنفيذ والجهاد..

وسنلتقي لنتدارس ونتباحث فيما حققناه وفيما يجب أن نحققه. وفي كل لقاء يجب أن يحمل كل منا لاخوانه انباء انتصارات جديدة عن الفكرة التي تمتد وتتمكن من العقول والنفوس..

وعندها فقط نتقدم.. نتقدم ونحن واثقون أن طاقاتنا وامكانياتنا تسمح لنا أن نتقدم حتىٰ تحقيق الهدف بعظمته..

وسنكون يومها مصرين ومصممين ألا نقف قبل أن نجتاز بوابة القلعة ونحن مطمئنين إلىٰ الكتلة البشرية الضخمة التي تهدر بزخمها تحت ألويتنا وترفع شعاراتنا..

ويومها سنقودهم، وسيتبعوننا علىٰ بصيرة من أمرهم وأمرنا، وسنزحف كالسيل العارم الجارف حتىٰ نرفع رايات الحق فوق برج القلعة...

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	٥
الفصل الثاني	٢٣
الفصل الثالث	٥٣
الفصل الرابع	٨١
الفصل الخامس	١٠٣

obeikandl.com